الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
République Algérienne Démocratique et Populaire
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
Ministère de l'Enseignement Supérieur et de la Recherche Scientifique

المركز الجامعي عبد الحفيظ بوالصوف لميلة

معهد الآداب واللغات
قسم اللغة والأدب العربي

المرجع: .....

جدلية الحياة والموت في شعر الصعاليك الشنفرى وتأبط شرًا نموذجا

مذكرة معدة استكمالا لمتطلبات نيل شهادة الماستر

الشعبة: أدب عربي

التخصص: أدب قديم

إعداد الطالبة:
*- كحل السنان فايزة

إشراف الأستاذة:
بوقاسة فطيمة

السنة الجامعية: **2017/2016**

دعاء

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى:

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥ ﴾

قال صلى الله عليه وسلم:

« لا خَيرَ فيمَن كانَ في أُمَّتي لَيسَ بِعالِمٍ ولا مُتَعَلِّمٍ »

اللهم اهدينا في من هديت وعافنا وتولنا في من توليت وبارك لنا في ما أعطيت وقنا واصرف عنا شر ما قضيت، اللهم آت نفوسنا تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها .

اللهم ارزقنا الإخلاص لك في القول والعمل .

اللهم أعنا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك .

اللهم يا سامع الصوت ويا سابق الفوت ويا كاسي العظام لحما بعد الموت هب لنا من لدنك رحمة واجعل خير أعمالنا خواتيمها وخير أيامنا يوم نلقاك فيه .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين كلما ذكرك الذاكرون وغفل عن ذكرك الغافلون.

شكر وعرفان

الحمد لله والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، محمد صلى الله عليه وسلم وبعد :

الحمد لله الذي أنعم علينا بالعلم وجعله في خدمة الناس ونشكره كثيرا على فضله ونعمه، وهو القائل:

﴿ رْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ المجادلة 11

وقال كذلك:

﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ الإسراء 85

والشكر الخاص للأستاذة "بوقاسة فطيمة" على النصائح والإرشادات التي كانت لنا شعاعًا أنار طريق البحث والمعرفة .

كما لا أنسى أن أتقدم بالشكر إلى جميع من قدم لي يد العون لإنجاز هذا العمل المتواضع .

لكل هؤلاء ألف شكر

الإهداء

إلهي لا يطيب الليل إلا بشكرك ولا يطيب النهار إلا بطاعتك ولا تطيب اللحظات إلا بذكرك ولا تطيب الآخرة إلا بعفوك ولا تطيب الجنة إلا برؤيتك "الله جل جلاله"

إلى من بلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة إلى نبي الرحمة ونور العالمين "سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم"

إلى زوجي الغالي "المهدي" ورفيق دربي أغلى الناس على قلبي أشكرك على مواقفك النبيلة ودعمك المتواصل لي حفظك الله وأنار دربك وأدامك شمعة مضيئة في حياتي جزاك الله خيرا .

إلى كل من كلله الله بالهيبة والوقار إلى من علمني العطاء بدون انتظار إلى من أحمل اسمه بكل افتخار والدي العزيز "الحسين"

إلى من فتح لي أبواب النجاح وأصدقني تجارب الحياة بالنصح والتوجيه والإرشاد إلى أبي العزيز "عبد الهادي"

إلى منبع الحنان ومرفأ الأمان ومن تحت قدمها لنا الجنان وحضن الشوق والإحسان التي تلف قلبي بين جوانبها وتغمر حياتي بأنوارها أمي الحبيبة "نصيرة"

إلى رسائل الأشواق الغامرة وحضن الحنان الدافئة ونسيم الصباح المنعش التي ترشدنا بنصائحها وتغمرني بعطائها ووفائها أمي العزيزة "سليمة"

إلى اخوتي : محمد وأحمد وسلوى وعبد الحق وأمينة

إلى عائلة زوجي الأعزاء نعيم حيدر وصبرينة وجهاد .

إلى الكتاكيت الصغار وبهجة المنزل: زين العابدين ومحمد الأمين وجواد ومشكاة .

إلى جدتي وجدي حفظهم الله وأطال عمرهم .

وفي الأخير نسأل الله عز وجل أن يمن علينا بالتوفيق .

مقدمة

مقدمة:

تُعزى نشأة الصعلكة إلى عوامل متعددة، تتجه بعضها إلى الناحية الطبيعية التي فرضت نفسها على الجزيرة العربية، فخصائص تلك الفيافي المقفرة جعلت أهلها يتسمون بسمات لها خصوصيتها، مما جعل لها دورا كبيرا في نشأة هذه الظاهرة، ويعود بعضها إلى الأعراف الاجتماعية والتقاليد السائدة بين القبائل البدوية والتي تجعل القبيلة تلك السطوة التي يعد الخروج عليها من المحرمات وسبب آخر اقتصادي يفرضه السبيان المنصرمان، تمخض عن ذلك كله خروج فئة من الشباب الثائرة عن بوثقة القبيلة، ينظمها خيط واحد هو التمرد على الأعراف وهذا الرفض والخروج لا مشاحة من ارتداد أثره على حياة الصعاليك بشتى صورها، لقد كان خروجهم من أجل إقامة روابط لا تستند إلى الشعور بالواجب نحو الجماعة، بل إلى الفردية التي تحس أنها قادرة على هدم ناموس الضرورة وتحقيق ما ينظر إليه العقل على أنه مستحيل، وخروجهم لم يأت من عدم وما كان ليذهب إلى فراغ.

وقد عرفت الصعلكة كثيرا من الشعراء من بينهم الشنفرى وتأبط شرا الذين عبرا عن تجاربهما الصادقة وحالتهما المتأزمة بقلم صادق، وشعر رائع ما حبب لنا دراسة جدلية الحياة والموت في شعر الصعاليك، وكان الشنفرى وتأبط شرا نموذجا اخترنــاه لإبراز هذه الجدلية، وكان سبب اختيارنا للموضوع حبنا الشديد للشعر العربي القديم وشغفنا الكبير بالبحث عن عيونه لحفظها والتغني بها.

ومن هنا كان بحثنا موسوما «بجدلية الحياة والموت في شعر الصعاليك الشنفرى وتأبط شرا نموذجا». نحاول من خلاله الإجابة عن أهم الأسباب التي أثارت صراع الحياة والموت في شعرهما، حاملا بين ثناياه مجموعة من التساؤلات وأبرزها:

- ما هي الجدلية؟
- ما هي الحياة والموت؟ وما هي أبرز المترادفات الدالة عليها؟
- ما هو مفهوم الصعلكة وأسباب نشأتها؟
- وما هي مظاهر الحياة والموت عند الشنفرى وتأبط شرا من خلال ديوانيهما؟

وقد صبت هذه الإشكالية في خطة تحيط بجوانبها المتشيعة فكانت كالأتي:
مقدمة ثم فصل أول عنونّاه بقراءة في المصطلح تناولنا فيه الجدل لغة واصطلاحًا ثم مصطلح الجدل في بعض المؤلفات والمعاجم الغربية ثم مقارنة بين الجدل والحوار والمحاجة والمناظرة والمكابرة وثانيا الحياة والموت، وفي هذا العنصر تناولنا الحياة لغة واصطلاحًا والموت لغة واصطلاحا ثم مرادفات الموت ثم انتقلنا إلى السمات الموضوعية والسمات الفنية لشعر الموت لننتقل إلى تطور مفهوم الحياة والموت من المعنى اللغوي إلى الترميز الشعري. وصولا إلى الصعلكة وفيها تناولنا اللفظة لغة واصطلاحًا ثم نشأة الصعلكة وبعض أسبابها ثم ابرز شعراء الصعاليك وفصل ثان وعنوناه قراءة في حوارية الحياة والموت في شعر الشنفرى وتأبط شرا وتناولنا فيه أولا مظاهر الحياة عند الشنفرى وتأبط ثم مظاهر الموت عندهما. ثم خاتمة البحث تضمنت أهم النتائج.

ولأن طبيعة النصوص الشعرية هي التي تحدد طبيعة المنهج الملائم لمعالجتها، وتستدعي إجراءات منهجية معينة في تحليلها ولقد استعنا بالمنهج الموضوعاتي قصد إبراز جدلية الحياة والموت من خلال المضامين الداخلية.

ولا يخلو هذا المجال من الدراسات السابقة التي أنارت لنا الطريق مثل: "**الحياة والموت في الشعر الجاهلي**" لعبد اللطيف جياووك، وقد اعتمدنا في بحثنا هذا على مجموعة من المصادر والمراجع خدمت موضوعنا بشكل كبير منها:

كتاب حسن أحمد عبد الحميد عبد السلام "**الموت في الشعر الجاهلي**"، وكتاب عبد الحليم حفني "**شعر الصعاليك منهجه وخصائصه**"، وكتاب يوسف خلف "**الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي**" وكتاب حنا الفاخوري "**الجامع في تاريخ الأدب العربي**" وغيرها من المراجع.

ورغم تنوع المراجع المستعان بها فقد واجهتنا بعض الصعوبات والتي نعزف عن ذكرها لأنه لا يخلو أي بحث منها، ولا تتم متعته إلّا بها.

وفي الأخير نتقدم بالشكر الجزيل إلى كل من ساهم في انجاز هذه المذكرة من قريب أو بعيد، وأخص بالشكر الأستاذة المشرفة "**بوقاسة فطيمة**" التي بذلت الكثير من أجلنا بغية انجاز هذا العمل، ولم تبخل علينا بنصائحها المنهجية القيمة، وبكل التوجيهات التي تخدم

البحث وتثريه كما نشكرها على وقتها الثمين الذي قضيته معنا في تصحيح هذه المذكرة فجزاها الله كل خير والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا نهتدي لو لا أن هدانا الله.

الفصـــــل الأول:

قـراءة في المصطلح

الفصل الأول: قراءة في المصطلح

أولا: الجـــــدل

ثانيا: الحياة والموت

ثالثا: الصعلكـة

الفصل الأول: قراءة في المصطلح

أولا: الجدل

1.لغة:

اتخذ مصطلح الجدل في المفهوم اللغوي معان كثيرة، وتطرقت إلى ضبطه العديد من المعاجم.

فقد ورد في لسان العرب على أنه:«**اَللدَدُ في الخصومة والقدرة عليها، وجدل يَجْدل: اشتدت الخصومة* ونقول رَجُل جَدِل و مجادل أي شديد الجدل إذا كان قوي الخصام شديدة وجادله مجادلة جدالا أي ناقشه وخاصمه. والجدل مقابلة الحجة بالحجة، والمجادلة تعني المناظرة والمخاصمة**»[1]. أي أن الجدل يعني شدة الخصومة والمناقشة.

وفي المعجم الوجيز هو:«**طريقة في المناقشة والاستدلال صورها الفلاسفة بصورة مختلفة، وهو عند مناطقة المسلمين قياس مؤلف في مشهورات ومسلمات**»[2] أي أن الجدل يعني شدة الخصومة والمناقشة والاستدلال بالمسلمات.

وهو في كتاب مقاييس اللغة:«**باب استحكام الشيء في استرسال يكون فيه، وامتداد الخصومة ومراجعة الكلام**»[3].

أي أن الجدل حوار قائم بين فردين أو جماعتين مختلفتين حول أمر ما.

«**والجدل مشتق من الجدالة، أي الأرض. وجدَّله: صرعه، علي على طلحة وهو قتيل فقال اغرز علي أبا محمد أن أراك مجُدَّلا تحت نجوم السماء**»[4] أي صريعا على الأرض.

---

[1] ابن منظور: لسان العرب، (تق: خالد رشيد القاضي)، ج 2، ط 1، دار صبح، بيروت، 2006، ص 196.

[2] مجمع اللغة العربية: معجم الوجيز، ج 1، ط 1، دار التحرير، مصر، 1989، ص 96.

[3] ابن فارس: مقاييس اللغة، (تق: عبد السلام هارون)، ج 1، ط 1، مطبعة البابي الحلبي وأولاده، مصر، 1969 ص 433.

[4] ابن منظور: لسان العرب، (تق: عبد الله العلائيلي)، دار الجيل، بيروت، 1989، ص 420.

فالجدالة هي الأرض التي يصرع فيها الخصم بعد نفاذ ما يملك من قوة بدنية أو عقلية أو سلاح.

إذن الجدل في اللغة له معنيان: أحدهما يدل على الصراع والخصام والمعنى الآخر يدل على الصرع، يؤول في النهاية إلى انتصار طرف على آخر وذلك عن طريق الأدلة القوية، والحجج الدامغة، وبراهين واضحة، مستعملا في ذلك قدراته العقلية من ذكاء وفطنة وخيال من اجل تغلبه على خصمه.

2. اصطلاحا:

تناول الباحثون الجدل في الاصطلاح من زوايا مختلفة فمنهم من تناوله من حيث التعريف، ومنهم من عرفه من حيث طبيعته، كما أن هناك من أورد مفهوما للجدل من زاوية الهدف وما يرميه، ومن هؤلاء أيضا من تعرض لتعريف الجدل كعلم له آدابه وضوابطه ومزاياه، واغلب هؤلاء عرفوا الجدل بالربط بين طبيعة الجدل والغاية منه، وسنعرض إلى تحديد هذه الجوانب كل على حدة للوصول إلى مفهوم شامل للجدل من حيث الاصطلاح وهذه الجوانب هي تعريف الجدل وطبيعته، والغاية منه، والجدل كعلم له آدابه وضوابطه.

إن الجدل من حيث التعريف هو «**في الأصل فن الحوار والمناقشة**»[5] و«**درة كلامية وبراعة حجاجية**»[6].

أما طبيعة الجدل فهو: الخصومة والمنازعة في البيان الكلام ويقصد به المشادة الكلامية والمفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة فهو في طبيعة الجدل يدل على شدة الخصومة والمنازعة في النقاش.

---

[5] جميل صليبا: المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والانجليزية واللاتينية، ج 1، ط 1، دار الكتاب اللبناني، بيروت (د. ت)، ص 391.

[6] محمد التومي: الجدل في القرآن الكريم فعاليته في بناء العقلية الإسلامية، شركة الشهاب، الجزائر، (د. ت)، ص 14.

وأمـا مفهـوم الجدل من حيث الغاية وما يؤدي إليه فهو «**إظهار المذاهب وتقريرها**»[7] ويهدف إلى «**تحقيق الغلبة بالدليل والحجة في اتخاذ رأي ما وإسقاط بالرأي المخالف**»[8].

أما الذين تناولوا الجدل كعلم له آداب وضوابط – كابن خلدون في المقدمة – فيرى انه «**معرفة بالقواعد في الحدود والآداب في الاستدلال التي يتوصل بها إلى حفظ رأي أو هدمه كان ذلك الرأي من الفقه أو غيره**»[9].

ويتضح مما سبق أن الجدل نوع من الحوار والمناقشة يتصف بالصراع والخصام والنزاع الكلامي، بين فردين لهدف تحقيق الغلبة بإظهار الاتجاهات والمذاهب والآراء بالأدلة ونفي حجج الخصوم ودحضها وتفنيدها من أجل إحقاق حق، أو إبطال الباطل، أو من أجل إبطال حق وإحقاق الباطل، وهذا يتوقف على براعة المتجادلين وما يستندون إليه من أدلة وحجج.

---

[7] زاهر عوض الألمعي: منهاج الجدل في القرآن الكريم، مطابع الفرزدق التجارية، القاهرة، (د.ت)، ص 20.

[8] محمد التومي: الجدل في القرآن الكريم، ص 14.

[9] ابن خلدون: مقدمة ابن خلدون، (تق: درويش الجويدي)، ط2، شركة أبناء شريف النصارى للطباعة والنشر، بيروت 1996، ص 428.

3.مصطلح الجدل Dialectique في بعض المؤلفات والمعاجم الغربية:

يرى نسيب نمر في كتابه تطور الديالكتيك أن كثيرا من المؤلفات والمعاجم الغربية قد تناولت كلمة ديالكتيك وذلك في كتب الفلسفية القديمة وفي مفاهيم بعض الفلاسفة فهي **«تعني الجدل الكلامي، أو البحث المنهجي، وإذا عدنا إلى مفهوم الكلمة نفسها نجدها مؤلفة من Dia التي تدل على معنى التبادل والمقايضة وقد أخذت على أنها تبادل في الكلام وفي الحجج والأدلة والبراهين الكلامية ويصح أن تؤخذ على أنها التضاد والتقابل والتعارض للتأثير المتبادل بين الأشياء، دون أن تقتصر على فن الجدل أو فن المماحكة، أو فن المنطق، أو فن المناقشة، أو فن التفكير»**[10].

أي أن كلمة الديالكتيك هي تبادل الكلام عن طريق الحجج والأدلة والبراهين.

ويواصل نسيب نمر قراءته ويرى **«بأن موسوعة "دلمبير" وديدرو (1751- 1760) ترى بأن كلمة الديالكتيك تعرف بفن التفكير والمناقشة بصورة صحيحة، وفي معجم العلمي لسنة 1835 يعرف بأنه فن التفكير. وبعد مائة سنة وبالضبط في عام 1935 يقول نفس المعجم انه مجموعة قواعد التفكير حاذفا لكلمة فن.**

وترى موسوعة لامبيرو (1885-1901) أن الديالكتيك هو فن صوغ الممحاكات المتماسكة والدقيقة وجعلها تتسلسل بصورة محكمة. أما المعاجم الغربية الحديثة فتعرف الديالكتيك بأن فن المناقشة، أو فن المناقشة بمماحكة كمعجم لالوند مثلا، ويرى نفسه الطبعة الخامسة 1947 أن الديالكتيك كل مجموعة من الأفكار يتعلق بعضها ببعض تعلقا شديدا ومنطقيا. وفي معجم اللغة الفرنسية الذي وصفه ليتربه 1863 أن الديالكتيك لدى أرسطو هو فن التفكير بحسب منهج وبصورة صحيحة، وان كلمة الديالكتيك والمنطق لم تبقى اليوم إلا شيئا واحدا تقريبا إن لم تكن تماما شيئا واحدا كما كانت لدي الرواقيين والمرسيين في العصور الوسطى ولقد جعل الأب (بوبييه) في كتابه "محاضرات في الفلسفة" أن المنطق والديالكتيك مترادفان»[11].

---

[10] نسيب نمر: تطور الديالكتيك عبر التاريخ وقانونه الأساسي وحدة ونضال المتضادات، دار الرائد العربي، بيروت (د.ت)، ص 11.

[11] نفسه ، ص 12.

ويتضح مما سبق أن اغلب المعاجم تتفق على أن الجدل:

- هو فـن أو قواعـد أو مبادئ تكتسب عن طريق التعلم.
- تتفق كلها على تسميته بالمناقشة أو الحوار أو التبادل والمقايضة.
- كما تتفق أيضا إضفاء شرط الصحة والسلامة والنظام.
- ومن ثمة فالجدل عند الغرب هو فن المناقشة أو الحوار بصفة سليمة وتبادل للأفكار بطريقة منظمة، والفرق بين مصطلح عند العرب والغرب يكمن في الطبيعة فمصطلح الجدل لدى العرب هو النزاع والخصام أما لدى الغرب أن يكون منظما ويمارس بطريقة سليمة.

4.بين الجدل والحوار والمحاجة والمناظرة والمكابرة:

تدور على الألسنة عبارات المناظرة والجدل والمكابرة والمحاجة، وأحيانا تطلق إحداهما في موضع الأخرى، وفي الحق أن بينهما اختلافا واضحا وهذا الاختلاف يكمن في:

أ. الجدل والحوار:

صاحبت هاتان الكلمتان الإنسان منذ أن بدا يدرك ما حوله من آراء متعددة، ومذاهب مختلفة، واتجاهات متباينة، «**فحاول الإدلاء بأفكاره ومنحها صفة الوضوح بالإلمام بكل جوانب هذه الأفكار وهذا ما يسمى بالحوار، ولكن إذا خاض صراعا ضد أفكار معينة وضد معارضين له يتحول الموقف إلى صدام من أجل الغلبة، وهذا ما يسمى جدلا أو جدالا ومقارنة بسيطة، بين كلمة حوار وكلمة جدل، نجد أن كلمة حوار أوسع مدلول في كلمة جدل لأن هذا الأخير يتضمن معنى الصراع، بينما الحوار يتسع لأكثر من ذلك**»[12].

أي أن الجدل يكون الغرض منه إلزام الخصم، والتغلب عليه في مقام الاستدلال والحوار أوسع من الجدل في ذلك.

ب.الجدل والمحاجة:

المحاجة «**استدلال الخصم لإثبات دعواه بما يملك من أدلة وبراهين، دون إلزام خصمه على إتباع مذهبه وآرائه، بينما الجدل أهم من ذلك، فإذا تجادل خصمان في قضية ما يحاول كلا الطرفين إبراز رأيه باعتباره الأصح، وأكثر من ذلك يلزم خصمه بإتباع رأيه ولزامه لا يقول به**»[13].

أي أن الجدل والمحاجة متناقضان تماما فالمحاجة تحاول إثبات دعوتها بأدلة وبراهين مع عدم إلزام خصم بإتباع مذهبه وأرائه فحين الجدل الغرض منه هو إلزام الخصم.

---

[12] محمد حسين فضل الله : الحوار في القرآن– قواعده، أساليبه، معطياته، ج1، دار المنصوري للنشر، الجزائر، (د. ت) ص 15.

[13] محمد التومي: الجدل في القرآن الكريم، ص 9.

جـ. الجدل والمناظرة والمكابرة:

فالجدل الهدف منه إلزام الخصم والتغلب عليه في مقام الاستدلال، و«**المناظرة الهدف منها الوصول إلى الصواب في الموضوع الذي اختلفت فيه أنظار المتناقشين أما المكابرة الهدف منها ليس موضوعيا بل ذاتيا وهو حب الشهرة ومطلق اللجاجة وغيرها من الأغراض التي لا تفي بالمطلوب ويمكن أن تجتمع هذه المعاني في جلسة واحدة للمناقشة ولقد يبتدئ المتناقشان في المناقشة بغية الوصول إلى الحقيقة، ويرد في ذهن أحدهما رأي يراه صواب فيتمسك به، ويلزم خصمه به، فهذا يسمى جدلا، وحينما يستمر أحد الأطراف في لجاجته بالرغم من معرفة غلبة خصمه عليه بالأدلة الدامغة ويراها واضحة ولكن تأخذه الغرة بالإثم فيتمادى في لجاجته وحينئذ يسمى مكابرة**»[14].

إذن فالجدل يختلف عن الحوار كونه احد أنواعه، كما يختلف عن المحاجة كونه يلزم الخصم إضافة إلى دحض آراء الخصوم.

[14] محمد أبو زهرة: تاريخ الجدل، دار الفكر العربي، مصر، (د.ت)، ص 5، 6.

ثانيا: الحياة والموت

الحياة والموت متناقضان تناقض النور والظلام والبرودة والحرارة، وهما كلمتان متضادتان في المعنى والمضمون.

1. الحياة:

أ. لغة:

لقد تعدد مفهوم اللغوي للحياة وذلك لتعدد المعاجم وورد في مختار الصحاح للرازي «**إن "الحياة" هي "ضد الموت"، والحَيُّ ضد المَوْت، والمَحْيَا مَفْعَلٌ من الحياة تقول محياي ومَمَاتي، والحَيُّ واحد (أَحْيَاءِ) العرب، و(أَحْيَاهُ) الله (فحيُّ) و(حَيَّ) أيضا والإدغام أكثر**»[15].

فمعنى الحياة في مختار الصحاح هي ضد الموت.

كما ورد بمعنى نفسه في القاموس المحيط «**الحياة هي نقيض الموت، والحي ضد الميت وجمعها أحياء، والحياة الطيبة: الرزق الحلال أو الجنة**»[16].

ومنه معنى الحياة في اللغة هي عكس الموت ونقيضها تماما.

ب. اصطلاحا:

الحياة في المعنى الاصطلاحي هي الحركة العقلية أو الجسدية ويقال على الإنسان أنه حي إذا كانت أعضاؤه غير متوقفة وأهمها العقل والقلب، والحياة أنواع اجتماعية وسياسية وثقافية ودينية، والحياة في الشريعة والتنزيل هي الحركة للعبادة.

والحياة كما عرفها الجرجاني في كتابه التعريفات هي «**صفة توجب للموصوف بها أن يعلم ويقدر**»[17].

وبهذا فالإنسان الذي لديه قلب يدق وعقل حي وجميع أعضائه سليمة يسمى حيا.

---

[15] محمد بن أبي بكر عبد القادر الرازي: مختار الصحاح، مكتبة لبنان، لبنان، 1986، ص 69.

[16] الفيروز بادي: القاموس المحيط، (تق: أنس محمد الشامي وزكريا جابر أحمد)، دار الحديث، القاهرة، 2008 ص 430.

[17] الشريف الجرجاني: معجم التعريفات، (تق: محمد صديق المنشاوي)، دار الفضيلة، القاهرة، (د. ت)، ص 83.

2. الموت:

أ. لغة:

لقد تعدد مفهوم اللغوي للموت وذلك لتعدد المعاجم، فالموت سر من أسرار الحياة وهي ظاهرة وجدت مع الإنسان منذ العصور الأولى وهي تعني الميم والواو والتاء أصل صحيح يدل على ذهاب القوة من الشيء منه، الموت خلاف الحياة وإنما قلنا أصله ذهاب القوة، لما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم: «**من أكل من هذه الشجرة الخبيثة شيئا فلا يقربنا في المسجد فإذا كنتم لابد آكيلها فأميتوها طبخا**»[18]، «**والموتان: الأرض لما تُحي بعد ولا صلاح، وكذلك الموات**»[19].

ما نفهمه من خلال هذا أن الموت هي عكس الحياة.

وفي لسان العرب «**الموت خلق من خلق الله تعالى غيره الموت والموتان ضد الحياة والمُوات بالضم الموت مات يموت موتا**»[20].

إن الموت إذن ضد الحياة وكلاهما خلق الله تعالى وهما سمتان حتميتان في الإنسان وكل شخص على وجه هذه الأرض سيسير إلى هذه النهاية وهي الموت.

وينتقل عن الراغب الأصبهاني قوله: «والموت يقع على أنواع بحسب أنواع الحياة فمنها ما هو بإزاء القوة النامية الموجودة في الحيوان والنبات كقوله تعالى: ﴿**ويحي الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون**﴾ [الروم:19] ومنها زوال القوة الحسية كقوله تعالى:﴿**قالت ياليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا**﴾ [مريم:23] ومنها زوال القوة العاقلة وهي الجهالة كقوله تعالى:﴿**أو من كان ميتا فأحييناه**﴾ [الأنعام:122]، ومنها الحزن والخوف المكدر للحياة ومنها كقوله تعالى: ﴿**ويأتيه الموت من كل مكان و ما هو بميت**﴾ [إبراهيم:17] ومنها المنام كقوله تعالى:﴿**الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها**﴾ [الزمر 42].

---

[18] محمد بن حنبل: مسند الإمام احمد بن حنبل، ج 5، ط 1، مؤسسة الرسالة، الأردن، 2001، ص 26.

[19] ابن فارس، مقاييس اللغة، (تق: عبد السلام هارون)، ج 5، ط 1، اتحاد الكتاب العرب، بيروت، 2002، ص 227.

[20] ابن منظور: لسان العرب، ج 2، ط 1، دار صادر، بيروت، (د. ت)، ص 90 – 94.

فقد قيل: المنام الموت الخفيف، والموت النوم الثقيل وقد ينهار الموت للأحوال الشاقة كالفقر والذل والسؤال والهرم والمعصية»[21].

ب. اصطلاحا:

ورد في كتاب التعريفات أن «**الموت صفة وجودية خلقت ضد للحياة، وبإصطلاح أهل الحق: هي قمع هوى النفس، فمن مات عن هواه فقد حَيى بهداه**»[22].

وقد أبان بعض مشتقات الموت منها:

- الموت الأحمر: مخالفة النفس.
- الموت الأبيض: الجوع لأنه ينور الباطن، ويبيض القلب فمن ماتت بطنه حَيَت فطنته.
- الموت الأخضر: ليس المرقع من الخرق الملقاة التي لا قيمة لها، لاخضرار عيشه بالقناعة.
- الموت الأسود: هو احتمال أذى الخلق، وهو الفناء بالله لشهود الأذى منه برؤية فناء الأفعال في فعل محبوبه[23].

فمن خلال مفهوم اللغوي والاصطلاحي نصل أن الموت والحياة مصطلحان متناقضان ومتعاكسان تماما فالموت خروج الروح من الجسد والحياة سلامة أعضاؤه الأساسية.

---

[21] راغب الأصبهاني: المفردات في غريب القران، (تق: نزار مصطفى الباز)، ج 1، مكتبة نزار مصطفى الباز، بيروت (د. ت)، ص 182.

[22] الشريف الجرجاني: التعريفات، ج 1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1983، ص 235.

[23] نفسه، ص 236.

3. مرادفات الموت

تعددت أسماء الموت في كتب اللغة، ومعظم هذه الأسماء من ألفاظ المؤنث، يقال «**للموت منية بفتح الميم وكسر النون وتشديد الياء المفتوحة، وحِمام (بكسر الحاء)، وسام ومنه قول الرسول صلى الله عليه وسلم لليهود عليكم السام (أي الموت) حينها قال اليهود للرسول صلى الله عليه وسلم السام عليك**»[24].

ومنون (بفتح الميم وضم النون مخففة)، ومنه قوله تعالى:﴿**أم يقولون شاعر نتربص به رَيْب المَنُون**﴾ [الطور: 30].

ويقال للموت أيضا «**مَنى (بفتح الميم مع القصر)، وشَعوب (بفتح الشين) لأنها تشعب الخلائق أي تفرقها، وحَيْن (بفتح الحاء وسكون الياء)، فيقال نزل بفلان الحين أي الموت والهلاك، ومنها أيضا أمَّ قَشْعم (بفتح القاف والعين مع شين معجمة ساكنة بينهما، وأم اللهيم، وأم الدّهَيْم**»[25].

والموت والمنية من ألفاظ الموت كما ورد في كتاب الألفاظ الكتابية «**الردى والهلاك والشكل والوفاة والخبال، ويقال في الكنايات عن ذكر الموت، لاقاه ووفاه حمامه، واستأثر الله به، ونقله إلى دار كرامته، وعوجل إلى رحمة ربه، واختار الله ما اختار لأصفيائه من جواره ومنه أجن في حفرته، وأقضى إلى ربه وأجنة ضريحه، وصار إلى عمله، وما كدح إلى نفسه**»[26].

---

[24] البخاري: صحيح البخاري، (تق: محمد زهير بن ناصر)، ط 1، دار طرق النجاة، السعودية، 1423هـ، ص 6206.

[25] محمد عبد الظاهر خليفة : الحياة البرزخية من الموت إلى البعث، دار الاعتصام، لبنان، (د.ت)، ص 44.

[26] عبد الرحمان بن عيسى الهمذاني: الألفاظ الكتابية، (تر: الأب لويس شيخو)، مطبعة الآباء اليسوعين، بيروت 1885، ص 253.

4. السمات الموضوعية والسمات الفنية لشعر الموت

أ. السمات الموضوعية

تشيع في شعر الموت عدة ظواهر تتعلق بالفكرة أو الموضوع، وهي تمثل سمات يتصف بها هذا الشعر وهذه السمات هي:

- **استعادة الماضي:**

في لحظة الضعف التي يواجــه فيهــا الشاعــر الموت أسيــرا أو جريحــا أو مريضا أو شيخا، «**يتذكر الماضي وحفل به من أوقات السعادة ومظاهر القوة**»[27].

وتطلعنا هذه السمة بوضوح في شعر رثاء النفس ورثاء الآخرين وغالبا ما تكون في إطار من الموازنة بين حالتي القوة والضعف، والماضي والحاضر، والحياة والموت.

- **ذكر الأهل والأصحاب والرفاق:**

وكما استعاد الشعراء ماضيه وهم يواجهون الموت، «**فذكروا أوطانهم وأهليهم وأصحابهم ورفاقهم وندوبهم في محاولة للتقوى بهم والإئتناس، إذ يشعر الشاعر في لحظة سيطرة فكرة الموت عليه بكثير من الضعف والوحشة، فيلتمس في تذكره أهله وندائهم عونا له على ما يعانيه**»[28].

- **الحضور القوي للمرأة:**

من الظواهر الواضحة في شعر الموت الحضور القوي للمرأة في ذهن الشاعر وذكرها والحكاية عنها، وقد ورد ذكر المرأة في عدة نماذج هي:

- «**نموذج المـرأة الساخـرة العادلــة المستهزئـــة**
- **نمـوذج الـــزوجـــة الـــوفيـــــة المحبـوبـــــة**
- **الابنة الخبيثة التي ينتظر الشاعر منها البكاء والحزن من أجله**
- **نمـــوذج الأم الدعوم**
- **نموذج المرأة المتعـة**»[29]

---

[27] حسن أحمد عبد السلام: الموت في الشعر الجاهلي، ط 1، مطبعة الحسين الإسلامية، القاهرة، 1991، ص 143.

[28] نفسه ، ص 145.

[29] حسن أحمد عبد السلام: الموت في الشعر الجاهلي ، ص 147- 149.

- **الحديث عن القبر:**

وقد ذكر الشعراء القبر ووصفوه بوصفه البيت الأخير الذي ينزله الإنسان، والمصير الذي ينتهي إليه.

ويتضح مما سبق أن استعادة الشاعر الماضي دليل على تعلقه بالحياة، وتعبير عن هذا مكنون فطرتها في حب العيش وكراهية فراق الدنيا وهذا كان واضحا في رثاء النفس وحضور المرأة في شعر الموت لا تختلف علته عن علة ذكر الماضي وذكر الأهل والرفاق فهو تعبير عن تعلق النفس بالحياة ورغبتها في استبقائها بتذكر عناصر المهمة. وذكر القبر والحديث عنه باعتباره البيت الأخير الذي ينزله الإنسان.

ب.السمات الفنية

يتصف شعر الموت بعدة سمات تميزه من حيث المعالجة الفنية عن غيره من ألوان الشعر الجاهلي، وهذه السمات هي:

- **الوحدة الموضوعية:**

في بحثنا عن الوحدة في شعر الموت لا مهرب. لنا من إخراج شعر الحكمة من هذا الشعر في ذلك، لأن الحكمة التي تناولت الموت لم تنفرد بقصيدة أو مقطوعة –غالبا– وإنما كانت أبياتا متفرقة في ثنايا القصائد أو آخرها.

«ويبقى عندنا في هذا نمطان آخران لشعر الموت، وهما رثاء النفس، ورثاء الآخرين وهذان النمطان يندرجان تحت عنوان واحد في أبواب الشعر العربي وهو الرثاء.

وقد تميزت أشعار الموت في هذين النمطين بوحدة الموضوع، ووحدة الجو النفسي وهي تختلف في منهجها وبنائها عن المنهج العام للقصيدة الجاهلية، هذا المنهج الذي كان يقضي بتعدد الأغراض والموضوعات في القصيدة الواحدة، ويبدؤها بمقدمة غزلية أو طللية ثم الانتقال إلى الوصف، ثم المدح أو الفخر .... أو غير ذلك من الأغراض»[30].

أي أن القصيدة الجاهلية في شعر الموت تتميز بوحدة الموضوع وذلك لتناولها أغراض متعددة من الوصف والمدح والفخر إلى غير ذلك من أغراض.

- **الصدق في العاطفة:**

لا شك في أن الشاعر عندما يعبر عن موقفه في مواجهة الموت راثيا نفسه أو راثيا غير، أو مصورا رأيه واعتقاده في أبيات من الحكمة بشأن هذا القدر الجاري على الناس جميعا، **«يعايش تجربته أصدق وأتم ما تكون المعايشة، حتى تملك عليه تجربته فكره وحواسه، لأن جو الحزن في هذا الموقف يملأ على الشاعر وجدانه ويحيط به من كل جانب، والتجربة هنا تجربة شخصية تنصهر داخل الشاعر، ويخلص لها، ومنبعها هو إحساس الشاعر بالغرابة والفناء في مواجهة الموت»**[31].

---

[30] حسن أحمد عبد السلام: الموت في الشعر الجاهلي، ص 153.

[31] نفسه، ص 155.

أي أن شعر الموت يفيض بالصدق النفسي الذي يحسه المرء في كل بيت وفي كل جملة.

- **وضوح الألفاظ وسهولة الأساليب:**

أدوات الشاعر هي ألفاظ اللغة وتراكيبها، وطرائق التصوير وأساليبه، بها يعبر الشاعر عن نفسه ويعلن ما في ضميره وبها يصور دقائق فكره وخفايا مشاعره. وبالنظر في الألفاظ التي استخدمها الشعراء، والأساليب التي سلكوها للتعبير عن إحساسهم بالموت، «**نجدها ألفاظ سهلة واضحة، قلما تجنح إلى إغراب أو غموض، وأساليب مستوية صافية لا إلتواء فيها ولا تعقيد**»[32].

أي الشاعر في حديثه عن الموت يصدر عن فطرته من غير تحسين ولا تزييف والفكرة التي تشغله لا تترك له مجالا للتحكيك والاختيار، فيعبر عن نفسه بأقرب الألفاظ وأسهل التراكيب وقد أضفى هذا الوضوح على شعرهم في الموت مزيدا من الجمال، والشعر الذي يصدر عن لواعج النفس بكل ما في هذه النفس من بساطة الشعور ورقة الحال لا يدهش أن تأتي ألفاظه سهلة بسيطة موحية.

- **واقعية الصورة:**

اعتمد شعر الموت –غالبا– على التعبير المباشر. وقلت فيه الصورة التخيلية كالتشبيه والاستعارة وغيرها،« **وكثرت فيه الصور الكلية النفسية التي ترمى إلى بيان المشاعر على حقيقتها، ووصف أثر الموت في نفس الشاعر وأحساسه به**»[33].

أي أن حقيقة الموت تسمو فوق كل تصوير وتحجر أي خيال، حيث نجد الشعراء استخدموا الأساليب المباشرة، ولم يلجأوا إلى الصور الجزئية الخيالية إلا في إطار محدود.

ويتضح مما سبق بان شعر الموت من حيث السمة الفنية قد تميز بوحدة الموضوع والصدق في العاطفة وتعبير عنها بألفاظ واضحة وبسيطة مع سهولة أساليبها.

---

[32] حسن أحمد عبد السلام: الموت في الشعر الجاهلي، ص 158.

[33] نفسه، ص 162.

5.تطور مفهوم الحياة والموت من المعنى اللغوي إلى الترميز الشعري:

لا ريب أن آية الحياة والموت، ما شكلا جزءا كبيرا من وجود الإنسان أن لم نقل جميعه وقد احتل القلق والحيرة ذهنه و هو يواكب هذه الديمومة الحياتية الرتيبة مابين الحياة ومتطلباتها وبين سطوة الموت، الذي هو نقيض الحياة، ويبقى سر الحياة والموت لصيقا بقلوب البشر، له تأثير مباشر في النفوس، ومنذ أقدم العصور. ومن خلال المفهوم اللغوي للحياة والموت نلاحظ أنه تطور إلى ترميز شعري برع فيه الشاعر الجاهلي موظفا الرمز حيث هو أداة للتعبير عن المعاني مجردة وعلى الأفكار المبهمة، والطموحات صعبة المنال ونظرا للصراع الذي يعيشه مع نفسه من جهة، ومع الكون من جهة أخرى، فقد كان لا بد للشاعر أن يلجأ إلى الرمز للتصوير ما يصعب تجسيده على أرض الواقع وللتعبير على كوامن وخبايا نفسه، وما يؤرقه من شكوك وتساؤلات فالرمز إذن هو:« **وسيلة إدراك ما يستطاع التعبير عنه... فهو أفضل طريقة ممكنة للتعبير عن شيء لا يوجد له أي معادل لفظي، وهو بديل عن شيء يصعب أو يستحيل تناوله في ذاته**»[34].

أي أن الشاعر يشير إلى فكرة أو معنى من المعاني، ويربطه بعلاقة طبيعية مع ما يرمز إليه ويعبر بذلك عن كوامن وخبايا نفسه عن طريق الرمز.

كما لقد قام الشعراء بتصوير قضايا الدنيا وأهم قضية هي قضية الحياة والموت عن طريق فن الشعر ولا شك أن «**الشعر من أقدم الأنواع الأدبية على التجربة الإنسانية في مواجهة الكون والحياة**»[35] وفن تعبير لفهم الإنسان للكون.

وبما أن الحياة العربية قبل الإسلام قامت على نظام القبيلة، وقد اقتضى هذا النظام أن يكون الشاعر مسجلا لمآثر قومه، قال ابن رشيق (ت456هـ):«**كانت القبيلة من العرب إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهنأتها... لأنه حماية لأعراضهم ودب على أحسابهم، وتخليد لمآثرهم**»[36].

---

[34] الجندي درويش: الرمزية في الأدب العربي، مطبعة النهضة، مصر، (د.ت)، ص 102.

[35] حسين عبد الجليل يوسف: الإنسان والزمان في الشعر الجاهلي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1988، ص 13.

[36] ابن رشيق القيرواني: العمدة في محاسن الشعر وأدبه ونقده، (تق: محمد محي الدين عبد الحميد)، ط 5، دار الجيل بيروت، 1981، ص 254.

ومعنى هذا أن القبيلة إذا نبع فيها الشاعر اختلفت وهنأتها القبائل المجاورة.
والعرب تنشد للغناء بمكارم أخلاقها، وطيب أعراقها ودليل على ذلك قول أبي تمام:

ولولا خِلال سَنَّها الشعر مادرى بُعاةُ الندى من أين توتي المَكارم؟ [37]

ولا يفوتنا القول أيضا أن الشعر يعد من أشرف الكلام عند العرب وأقدمه كما قال ابن خلدون (ت808 هـ):«**أعلم أن الشعر من بين الكلام كان شريفا عند العرب، ولذلك جعلوه ديوان علومهم وأخبارهم**»[38].

لقد استخدم الشاعر الجاهلي الترميز الشعري في شعره ووظف ذلك في كثير من أشعاره التي قدم فيها إبداعاته وكوامن عقله وذكائه وقد برع في هذا المجال، فنجد الشاعر الجاهلي في صحرائه فهو أمام الموت وجها لوجه، فالشعر والحياة كنز ناقص، والموت إذا أعقل بعض الناس طال عمرهم فهم لا يفرجون عن قدرته وسلطانه، ولا مناص للمرء من الموت، يقول طرفة بن العبد:

أرى العيش كنزا ناقصا كل ليلـــة وما تنقص الأيام والدهور ينفـــذ
لعمرك أن الموت ما أخطا الفتـى لكا الطوّل المرُخى وثناياه باليـــد
ومتى ما يشـــأ يوما يقده لحتفـه ومن يك في حبل المنيـــة ينقـــد [39]

إن الموت إذن نهاية يرقبها الإنسان كل يوم، وهو لغز غامض لا يدري الإنسان ما ورائه من مجهول ولهذا يستخدم الشاعر الرمز ويوظفه للتعبير عن معانيه المجردة وأفكاره التي تختلجه وتكون مبهمة.

ويؤكد الشاعر على أن الحياة آيلة إلى الفناء وأنها ليست دائمة، وعلى الإنسان أن لا يؤمن الدهر، حين أدرك عجزه أمام صولة الدهر يقول عدي العابدي:

قـــد أرانـــا وأهلنـا بحفير نحسب الدهر والسنين والشهـور
فأمنـــا وعزنـــا ذاك حتى راعنـــا الدهـــر قد أتانـا مغيـرا

---

[37] أبو تمام: الديوان، (تق: شاهين عطية)، ط 1، مكتبة وشركة الكتاب اللبناني، بيروت، 1968، ص 254.
[38] ابن خلدون: مقدمة ابن خلدون، ط 4، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د. ت)، ص 535.
[39] طرفة بن العبد: الديوان، (تق: علي الجندي)، دار الفكر العربي، القاهرة، (د. ت)، ص 53.

إن للدهر صولة فاحذرنهما لا تبيتن قد أمت الدهورا [40]

استخدم الشاعر في هذه الأبيات الرمز ليبرز اقتناعه بأن الحياة فانية والموت هو مصير كل إنسان على سطح هذه الأرض.

وفي الأخير نجد أن الشاعر استخدم الرمز للتعبير عن خبايا نفسه وكوامن عقله.

[40] عدي بن زيد العابدي: الديوان، (تق: عبد الجبار المعيد)، شركة دار الجمهورية للنشر والطبع، بغداد، 1965 ص 64.

ثالثا: الصعلكـــة.

1.المفهوم اللغوي:

الصعلكة كما وردت في معاجم اللغة هي الفقر، والصعاليك هم الفقراء، وفي لسان العرب صعلك الصعلوك: الفقير الذي لا مال له، وقد تصعلك الرجل إذا كان كذلك.

يقول حاتم الطائي:

غُنِّينَا زَمَانًا بالتَّصَعْلُك والغِـــى فَكُــ لَّاسُقْنــاه بكاسيهمــا الدَّهْرُ

فما زَادنَا بَغْيًـا عــن ذي قرابـة عِذَانا ولا ازْرى باحْسابِنَا الفقــر [41]

«وتصعلكت الإبل: أي خرجت أوبارها و انجردت وطرحتها، ورجل مصعلك الرأس: مدَّوره، ورجل مصعلك الرأس، صغيره.

والتصعلك: الفقر، وصعاليك العرب: ذؤبانها، لأنهم كالذئاب، وذؤبان العرب: لصوصهم الذي يلتصصون ويتصعلكون»[42].

فالصعلكة في لسان العرب تعني الفقر.

كما جاءت بمعنى الفقر كذلك في القاموس المحيط يقال صعلكه: «**أفقره، وصعلك البقر: سمنها، ورجل مصعلك الرأس مدوره، وتصعلك افتقر والإبل طرحت أوبارها**»[43] أي أن الصعلكة تعني الفقر.

وفي الصحاح «**الصعلوك الفقير. وكان عروة يسمى عروة الصعاليك لأنه كان يجمع الفقراء في حظيرة فيرزقهم مما يغنمه. والتصعلك الفقر**»[44].

إن الصعلكة إذن هي الفقر والصعاليك هم الفقراء.

فالصعلكة إذن في مفهومها اللغوي هي الفقر الذي يجرد الإنسان من ماله، ويظهره ضامرا هزيلا بين أولئك الأغنياء المترفين الذين اتخمهم المال.

---

[41] حاتم الطائي: الديوان، دار صادر، بيروت، 1981، ص 51.

[42] ابن منظور: لسان العرب، ج 8، ص 196.

[43] الفيزوز بادي: القاموس المحيط، ص 946.

[44] الجوهري: الصحاح، (تق: احمد عبد الغفور عطار)، ط 4، دار العلم الملايين، بيروت، 1990، ص 158.

2. المفهوم الاصطلاحي:

إذا كانت الصعلكة تعني لغة الفقر، فإنها في الاصطلاح: «**مصطلح يتعلق بأحوال العاملين بها، وتعدد الشعراء الصعاليك أدى إلى تعدد أسباب التصعلك، وهذا الأخير أدى بدوره إلى تعدد مفاهيم الصعلكة فنجدها أحيانا بمفهوم الفقر والحاجة، ونراها أحيانا أخرى مهربا ومسلكا بغية كسب القوت والثأر، وفي مواضع أخرى تحمل معاني معبرة عن الإنسانية ورفض الذل والمهانة، وإعانة الفقراء دفاعا عنهم وتوعية لمن هم في ديارهم مضطهدين.**

فالصعلكة تعني في معناها العام الفقر وماله بالعوز والحرمان في ظل حياة قاسية يبحث فيها عن سبيل الرزق، فضلا عن الدلالة الاجتماعية التي لها علاقة بالوضع الاجتماعي الذي يحياه الفرد في ظل مجتمعه، ومن ثم قد تفرض عن هذا الفرد أن يسلك أسلوبا معينا في حياته الخاصة كرد فعل لما لحقه من ضيم، أو رغبة منه في تغيير وضع ما أو بلوغ غايته المادية والمعنوية»[45].

إذن فالصعلكة تعني الفقر وماله علاقة من الحاجة والحرمان.

أما الصعاليك فهم «**جماعة من اللصوص انتشروا في الجزيرة العربية يكسبون العيش بالنهب والسلب وقد نبذتهم قبائلهم إما لأنهم كانوا أبناء إماءً، أو لأنهم أتوا بأعمال تتنافى وتقاليد تلك القبائل أو تعرضها لأخطار جسيمة. ولما كان الأمر كذلك انقطعت لأولئك الصعاليك كل صلة بالمجتمع القبلي**»[46].

وكان عدد كبير من الصعاليك شعراء دار شعرهم «**حول عدوهم وسرعتهم، وحول اغاراتهم ومغامراتهم وتشردهم في الفلوات، وكثيرا ما اظهروا استئناسهم بوحش الصحراء وتفصيلهم له عن الأهل، وقد عاشروا الوحوش والطير والحشرات، وعرفوا أسرار طبائعها حتى كان لهم بها صلة نفسية شعورية ونظموا الشعر في وصفها وتفسير انفعالاتها وتفاعلاتها، وقد أكثروا من وصفها وذكر مسالكها وعضلاتها، لأنهم كانوا شديدي اللصوق بالبيئة**»[47].

---

[45] بوجمعة بوبعيو: جدلية القيم في الشعر الجاهلي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2001، ص 69.

[46] حنا الفاخوري: الجامع في تاريخ الأدب العربي، ط 1، دار الجيل، بيروت، 1987، ص 164، 165.

[47] نفسه، ص 165، 166.

إن المعنى المباشر للصعلكة إذن هو الفقر، وهي في استعمالاتها الأخرى تدور أيضا حول الفقر، وأما بمعناها المباشر وهو التجرد، لكن الفقر في الإنسان هو التجرد من الغنى.

3.نشاة الصعلكة وأسبابها:

من الصعب تحديد بدء الصعلكة من الناحية الزمنية لأكثر من سبب، ويمكننا حصرها في الأسباب التالية:

أ. عدم وجود الدولة الجامعة:

إن عدم وجود الدولة والقانون يؤدي إلى فقدان صفة الالتزام، وضعف سلطانه على النفوس، بحيث لا يشعر الأفراد بأنهم ملزمون بتنفيذه، فإنه يفقد كيانه الحقيقي كقانون ويصبح مجرد اسم وهيكل لا حياة فيه ولا تأثير له، وكذلك الشأن بالنسبة للدين والدولة وهذا ما تعرض له الجاهليون وخاصة شعراء الصعاليك فهم لم يعرفوا الدولة الجامعة التي تبسط عليهم سلطانها وتفرض قوانينها وتنظم شؤونهم وتسيير حياتهم، بل كان النظام القبلي هو السائد في الجزيرة العربية، وكلما كانت أقدر على بسط سيطرتها وفرض رؤيتها على غيرها فأصبحت القبيلة بنظامها هي السلطة المسيطرة لأمور الحياة السياسية والاجتماعية لمن ينتمون إليها، ولذلك أبى الصعاليك الخضوع لهذه السلطة «**لأنهم لا يؤمنون بأي سلطان من أي نوع وتجد هذه النزعة شائعة في شعرهم**»[48].

لهذا يقول الشنفرى:

أقيموا بني أُمِيّ صدور مطيكُم فإني إلى قوم سواكم لأميل
فقد حمت الحاجات والليل مقمر وشدت لطيّات مطايا وأرحل
وفي الأرض منأى للكريم عن الأذى وفيها لما خاف الغلى متغزل
ولي دونكم أهلون سيد عمسله وأرقط زهلول وعرفاء جيأل [49]

الشنفرى في هذه الأبيات يفضل العيش مع الوحوش الضارية على حياة وسط مجتمع ظالم جائر متعسف، فالذئاب والضباع والنمور مجتمع الشنفرى الجديد وأهله الذي يفضلهم على أهله الحقيقيين لأنهم أحفظ للسر، واقدر على نصرته وحمايته، وفيها من

---

[48] عبد الحليم حفني: شعر الصعاليك منهجه وخصائصه، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1987، ص 39.

[49] الشنفرى: الديوان، (تق: ايميل بديع يعقوب)، ط 2، دار الكتاب العربي، بيروت، 1996، ص 58، 59.

الخصال ما لا يوجد عند أهله وهذا تأبط شرا يأبى أن يخضع لأعراف المجتمع وتقاليده فيقول:

إنِّي زعيمٌ لئن لم تتركوا عــذلـي أَنْ يَسْأَلَ الْحَــيُّ عَنِّـي أَهْلَ آفَاقِ
أَنْ يَسْأَلَ الْقَوْمُ عَنِّي أَهْلَ مَعْرِفَــة فَــلاَ يُخَبِّرُهُــمْ عَـنْ ثَـابِتٍ لاَقِ
سدِّد خــلالكَ مـن مــالٍ تُجمّعـهُ حَتَّى تُلاَقِي الَّذي كُلُّ امْرِىء لاَقِ
لتقرعنَّ علـيَّ السِّــنَّ من نــــدمٍ إذا تذكَّرتَ يومـاً بعضَ أخــلاقي [50]

أي أن تأبط شرا في هذه الأبيات يتمرد عن القبيلة وأعرافها، محاولا فرض رؤيته عليها وإلا فإن في الأرض الواسعة ملاذا وملجأ له.

وهكذا غلبت نزعة التحرر من السلطة والنفور منها على شعر الصعاليك ومعنى أن الصعلكة والسلطة الحقيقية المتمكنة لا يتفقان، لذلك فقد شاعت الصعلكة لعدم وجود هذه السلطة أو الدولة.

ب.ظهور زعامات غير متزنة:

إن عدم وجود هذه السلطة ترتب عليه أمور أخرى نعتقد أنها ساهمت في نشأة الصعلكة وانتشارها، وأهم هذه الأمور ظهور زعامات غير متزنة في المجتمع الجاهلي فكانت هذه الزعامات تتمثل في رؤساء القبائل والعشائر، «**وهؤلاء الرؤساء لم يكن هناك قانون ينظم وصولهم إلى الرياسة، وإنما كانت هناك صفات تعارفوا على أن يسودوا من اجلها من يتحلى بها، وان اختلفت نظرة القبائل إلى هذه الصفات**»[51].

أي أن الرؤساء والقبائل لم يكن هناك قانونا ينظم وصولهم إلى الرياسة ولم تكن هناك ضوابط وأسس تقوم عليها رئاستهم فبالتالي قد ساهموا مع الظروف في قسوتها القضاء على مجتمع محدود الموارد، ومن الطبيعي أن يكون هذا السلوك عاملا من عوامل تمرد بعض الأفراد ولجوئهم إلى وسائل كالصعلكة. وإذا كان في المجتمع الجاهلي من تغريه أموال هؤلاء السادة بالتلصص والسطو عليها فأولى الناس بذلك هم الصعاليك.

---

[50] تأبط شرا: الديوان، دار المعرفة، بيروت، 2003، ص 43.

[51] عبد الحليم حفني: شعر الصعاليك منهجه وخصائصه، ص 53.

ج. الفقر:

أجمعت كتب اللغة ومعاجمها كما رأينا أن أصل كلمة الصعلكة هو الفقر، ولا شك أن هذا يؤثر على نشأة الصعلكة وكذلك على حياة الصعاليك المادية، وكان الفقر من أهم الأسباب التي أدت إلى الصعلكة وقلة الموارد المعيشية في أرض مترامية الأطراف. فالفقر كان سببا بارزا ومهما في ظهور هذه الظاهرة في العصر الجاهلي يقول عروة بن ورد:

دَعيني لِلغِنى أَسعى فَإِنّـــي رَأَيتُ النـ اسَشَرُّهُـــمُ الفَقيرُ
وَأَبعَــدُهُم وَأَهـوَنُهُم عَلَيهِـم وَإِن أَمسى لَهُ حَسَبٌ وَخيـرُ
وَيُقصيــهِ النَــديُّ وَتَزدَريــهِ حَليلَتُــهُ وَيَنهَــرُهُ الصَغيـرُ
وَيُلفى ذو الغِنى وَلَهُ جَـلالٌ يَكـــادُ فُــؤادُ صاحِبُهُ يَطيرُ
قَليــلٌ ذَنبُـــهُ وَالـ ذَنبُ جَمٌّ وَلَكِن لِلغِنـــى رَبٌّ غَفـــورُ [52]

إذن فقد وقع نظر عروة بن ورد على مجتمع متعسف، يحتقر الفقير لأنه فقير فحسب ويجل الأغنياء لا لشيء أيضا إلا لأنهم أغنياء، فتألم لذلك وأعلن ثورة على الأغنياء، لأنه أدرك انه لا حياة للفقير في مجتمع يجل الأغنياء ويتجاوز على أخطائهم ويحتقر الفقير المعدم لا لشيء إلا لفقره، ونجد أيضا السليك ابن السلكة يقول:

وما نلْتُهــا حتـــى تصعلَكت حِقبـة وكــدت لأسبـاب المنيــة أعــرف
وحتى رأيت الجوع بالصيف ضرنـي فإذا قمت تغشا في ضلال فأسـدف [53]

فالسليك بن السلكة في هذه الأبيات يصور لنا فقره وما لحق به من الجوع، لدرجة انه إذا قام لحاجة أخذه الدوار وتراءات الخيالات والأطياف.

ويقول في موضع آخر:

أشـاب الــرأس إني كـــل يوم أرى لــي خالــة وسط الرحـال
يشــق علــى أن يلقيــن ضيما ويعجز عن تخليصهن مالـــي [54]

---

[52] عروة بن الورد: الديوان، (تق: أسماء أبو بكر محمد)، دار الكتب العلمية، بيروت، 1992، ص 79.

[53] السليك بن السلكة: الديوان، (تق: طلال حرب)، الدار العالمية، بيروت، 1993، ص 94.

[54] نفسه، ص 89.

أي أن السليك بن السلكة في الأبيات يصرح لنا بأن الفقر والجوع كانا من الأسباب التي دفعته للغزو والبحث عن المال يغنيه، ويصرح في شعره بأن الفقر احد أسباب الصعلكة.

إذن الفقر كان سببا بارزا من أسباب ثورة على الأغنياء الذين كانوا يزدادون غنى يوما بعد يوم، والفقير يزداد فقرا.

د. طبيعة الحياة في الجزيرة العربية:

كانت الجزيرة العربية بطبيعتها الجغرافية المتميزة، تعتبر ملاذا آمنا للصعاليك حيث الصحراء المترامية الأطراف، والجبال العالية المعتدة، وندرة المياه وقلتها، وصعوبة الطقس من حيث شدة الحر والبرد الشديد، كل هذا جعل الصعلوك يشعر بنوع من الأمان على نفسه، والبعد عن كل ما يطلبه من أعدائه.

لذا كان لابد أن يكون «**عالما بمجاهل الصحراء، يعرف دروبها وأوديتها وجبالها وواحاتها وطرق تجارتها، حيث يعرف كيف يفر ناجيا بنفسه من عدوه**»[55] فبهذه الطبيعة وبما تيسره من الاختفاء في مجاهلها وجبالها، ومتاهاتها من العوامل البارزة في نشأة الصعلكة وحياتها.

ولذلك نجد الصعاليك على رغم من نشأتهم في أماكن قريبة من الخصب، إلا أنهم يفضلون دائما أن يكونوا في كنف هذه الطبيعة صعبة المنال، فنجدهم يألفون الجبال والقفار والأماكن التي يغش غيرهم المجيء إليها. وفي هذا يقول تأبط شرا:

ألا مــن مبلــغ فتيــان فهـم بما لا قيت يوم رحــى بطان

بانــي قد لقيت الغــول تهوى بقفر كالصحيفة صحصحـان [56]

يتحدث تأبط شرا في هذه الأبيات عن موضع موحش يخافه العرب لاعتقادهم انه لا يخلو و السعالي والغول وهو رحى بطان، ولكن تأبط يألف هذا المكان ولا يخاف غيلانه وسعاليه، بل يتحدث عن قتله أحدها.

أما بالنسبة لقسوة الطبيعة من حرّها وقرها، فيحدثنا الشاعر ويقول:

وليلـة نَحْـسٍ يصْطلي القوس رُبهــا واقطعـــه اللائــي بهــا يتنبـل

---

[55] عبد الحليم حفني: شعر الصعاليك منهجه وخصائصه، ص 64.

[56] تأبط شرا: الديوان، ص 74، 75.

دعست على غطشٍ وبقش وصُحْبتي سُعـــار وارْزيزٌ وَوَجْـرٌ وأذكــل [57]

الشنفرى في هذه الأبيات يحدثنا عن شدة البرد الشديد الذي يجعل صاحب القوس يكسرها وهي التي لا غنى عنها كي يستدفئ بها.

ويقول في موضع آخر:

ويَوْمُ من الشعري يذوب لوابـه أفاعيـه في رَمْضائــه تتملُمـلُ

نصبت له وجهي ولا كُنَّ دونه ولا سيرٌ الأتْحَمِـيُّ المُرَعْبَـــلُ [58]

الشنفرى هنا يصف لنا شدة الحر الذي يجعل الإنسان يرى خيوطا كخيوط العنكبوت من شدة الهاجرة فهذا الحر لا تحتمله حتى الأفاعي التي اعتادت العيش في الصحراء.

إذن الطبيعة التي قست على أهلها، ولكنها لم تخذلها يوما، بل كانت موطنا وملجأ ومسكنا ألفوا العيش فيه، فهي بمثابة حصون لهؤلاء الصعاليك، حين يلم بهم خطر أو يتعقبهم طالب أو مطاردة، بل كانت مستراحا لهم حين يشعرون بالضيق من الناس والنفور منهم، لما بين حياتهم وحياة الناس من تصارع.

هـ.التمرد والخروج عن الأعراف السائدة:

إن الشذوذ وسوء الخلق لا يكاد يخلو منه المجتمع، وكان يقابل في الجاهلية بنظام قبلي صارم، وبعقوبة شديدة في الإسلام، «**ففي الجاهلية كانت القبيلة تتبرأ من الشخص الذي تكثر جرائره وخيابته، بأن تعلن في مواسم الحج أو الأسواق أنها خلعت (فلانا) فلا تطالب به إذا اعتدى عليه، ولا يلحقها من جريرته شيء إن اعتدى على أحد، فعرف هؤلاء بعد ذلك بالخلفاء مثل قيس بن الحدادية الذي خلعته قبيلته بسوق عكاظ**»[59].

إذن هؤلاء الصعاليك فرغوا حياتهم لمزاولة الأعمال العدائية، من سطو وقطع للطريق واعتداء على الممتلكات.

وفي الأخير نصل إلى أن نشأة الصعلكة اجتمعت في عوامل مختلفة وعديدة، يمكن إجمالها عامة في ثلاث مؤشرات رئيسية وهي:

- المؤشر الاقتصادي: ويدخل ضمنه الفقر.

---

[57] الشنفرى: الديوان، ص 69.

[58] نفسه، ص 71.

[59] الأصفهاني: الأغاني، (تق: عبد الستار أحمد فرج)، ج 14، دار الثقافة، بيروت، (د . ت)، ص 137.

- المؤشر الجغــرافي: ويشمل طبيعة الحياة في الجزيرة العربية.
- المؤشر الاجتماعي: ويدخل ضمنه عدم وجود الدولة، والتمرد والخروج عن الأعراف السائدة إضافة إلى وجود زعامات غير متزنة.

4.أبرز شعراء الصعاليك:

لقد حمل شعر الصعالك في طياته جملة من الصيحات كالفقر والحكايات التي كانوا يعيشونها، وبهذا نجد كثرة الشعراء في الجهالية إلى حد يخيل إلينا أن أكثر العرب شعراء وأن الشعر أخصب ما أنبتته البلاد العربية لذلك المهد، وقد كان هناك عدد من الشعراء الصعاليك يتمحور شعرهم حول عدوهم وسرعتهم وحول أغارتهم ومغامراتهم وتشردهم في الصحاري ومن أبرز هؤلاء الصعاليك نجده.

أ. الشنفرى:

- **تاريخه ونسبه:**

«هو ثابت بن أوس الأزدي الملقب بالشنفرى، وقد عاش صعلوكا ولصا مرهوبا الجانب لا معتصم له سوى الجبال، يغير ثم يأوي إليها، فيما يروى عنه أنه حلف بقتل مئة رجل من بني سلامان، فقتل تسعة وتسعين»[60]،فهو قحطاني النسب **«ويدل اسمه ومعناه الغليظ الشفاه، وأن دماء حبشه تجري فيه من قبل أمه، فهي حبشية، وقد ورث عنها سوادها ولذلك عُدّ في أغربة العرب، ولا تراه ينشأ في قبيلة فهم، ويضرب الرواة في سبب نزوله مع أمه وأخ له بها، وبما كان أقرب ما يرونه مــن ذلك أن قبيلة قتلت أباه فتحولت امه عنها إلي بني فهم، ويقال الذي روضه عن الصعلكة وقطع الطرق تأبط شرا، فكان يغير معه حتى لا يقام لسبيله»**[61].

- **أدبه:**

للشنفرى شعر في **«الفخر والحماسة وأشهرها ما يسمونه "لامية العرب"، وهي قصيدة من 68 بيتا وأنها لم تكن ثابتة النسبة التي في مجملها أو في قسم كبير منها، فهي تنطق بلسان البادية الأولى وحياة التشرد والعنفوان، وقد شرحها الزمخشري وترجمت إلى الفرنسية والألمانية والإنجليزية»**[62].

كما أن للشنفرى ديوان صغير طبع في لجنة التأليف والترجمة والنشر بمجموعة الطرائق الأدبية.

---

[60] حنا الفاخوري: الجامع في تاريخ الأدب العربي، ص 182.

[61] شوقي ضيف: العصر الجاهلي، ط 1، دار المعارف، القاهرة، (د . ت)، ص 389.

[62] حنا الفاخوري: الجامع في تاريخ الأدب العربي، ص 182.

- **شخصيته من خلال شعره:**

«الفقر والنفس بالبدوية الغريزة هما مصدر شعر الشنفرى، فجفاف الصحراء ومطاردة الشدائد كراً وفراً، واستنكر للمذلة وإيثار الوحوش عل الأهل لأنها أحفظ للسر وأحرص على الجار وأن الجار والاكتفاء بالقليل مادة وسكنا، والصبر على الجوع وإيثار التراب على الطعام المتفصلين، ومجاراة الأيام والقبول بالفقر والغنى والارتياح إلى القوس... وأخيرا الاستسلام الى الصيغ طعاما وغذاءا وتفضيل ذلك القبر الضيق...هذا هو ابن الصحراء وابن الطبيعة العربية البدوية هذا هو الشنفرى.

- **مقتل الشنفرى:**

نقل الرواة عن مقتل الشنفرى روايتين، وفيهما أن بن سلامان هم الذين قتلوه بعد أن قتل منهم خلقا كثيرا وذلك بمساعدة أسد بن جابر أحد العدائين، وفي ثانية أنه غزا ابن سلامان فجعل تعتلهم، ويعرفون نبله بأفواقها في قتلاهم، حتى قتل منهم تسعة وتسعين رجلا، ثم غزاهم غزوة، فنذروا به، فخرج هاربا، وخرجوا في أثره، ففر بامرأة منهم يلتمس الماء فعرفته، فأطعمته أقطا يزيد عطشا، ثم استسقى فسقته رائبا، ثم غيبت عنه الماء، ثم خرج من عندها، وجاءها القوم فأخبرتهم خبره، ووصفت صفته وصفة نبله، فعرفوه، فرصوه على ركيَّ لهم، وهو ركيَّ ليس لهم ماء غيره، فلما جن عليه الليل أقبل إلى الماء فلما دنا منه قال: أني أراكم، وليس يرى أحدا إنما يريد بذلك أن يخرج رصدا أن كان ثمّ فأصاخ القوم وسكتوا ورأى سوادا وقد كانوا أجمعوا قبل أن قتل منهم قتيل أن يمسكه الذي إلى جنبه لئلا تكون حركة، قال: فرمى لما أبصر السواد، فأصاب رجلا فقتلهن فلم يتحرك أحد، فلما رأى ذلك أمنى في نفسه وأقبل إلى الرعي، فوضع سلاحه، ثم انحدر فيه، فلم يرعّه إلا بهم على رأسه قد اخذوا سلاحه، فنزل ليخرج، فضرب بعضهم شماله فسقطت، فأخذها فرمى بها كبد الرجل، ففر عنده في القليب فوطيء على رقبته فدقها...

ثم خرج إليهم، فقتلوه، وصلبوه، فلبث عاما أو عامين مصلوبا، وعليه من نذرة رجلٌ، قال: فجاء رجل منهم كان غائبا، فمر به وقد سقط فركض رأسه برجله، فدخل فيها عظم من رأسه فبغت عليه فمات منها، فكان ذلك الرجل هو تمام المائة.

- **ميزة أدبه:**

لا يختلف أدب الشنفرى عن أدب تأبط شرا مادة ونفسا ولونا محليا وخشونة ألفاظ في رقة العاطفة ناعما لا يختلف عنه تدفقا فطريا والتصاق بالمادة، وانه لمن الغريب أن نرى في مثل هذا الصعلوك ذلك الانطلاق النفساني وتلك الحكمة الطبيعية وذلك الترف في الاعتزاز والشرف والكرم وعلـو النفس، ولكنها النفس العربية والطينة العربية في تجبيرها الشديد الوطأة، وفي نبضاتها واختلاجاتها الكريمة الآخذة على ما هنا من قسوة وخشونة»[63].

ولا نعرف متى قتل الشنفرى، وكل الذي نعرفه في هذه المسالة انه كان معاصرا لتأبط شرا، وقتل قبله، وأن تأبط شرا رتاه، فأما تأبط شرا فقد تقدم الإسلام بقليل، فيكون الشنفرى من شعراء القرن السادس للميلاد، وقد حدد الزركلي سنة وفاته نحو سنة 80 ق هـ أي نحو 525 م.

[63] الشنفرى: الديوان، ص 13.

ب. تأبط شرا:

- **حياته ولقبه:**

«هو ثابت بن جابر بن سفيان بن عثميل بن عدي بن كعب بن حزن وقيل بن حرب بن تميم بن سعد بن فهم بن عمرو بن قيس بن عيلان بن مضر بن نزار. وأمه امرأة يقال لها: أميمة، يقال انها من بني القين بطن من فهم، ولدت خمس : تأبط شرا، وريش نسرو كعب جدر ولابواكي له، وفي روايات لابواكي له، ولاتراكي، وقيل: أنها ولدت سادسا اسمه عمرو»[64].

وفي تاريخ الأدب العربي لبلاشير: **«تأبط شرا" هذا لقبه واسمه ثابت بن جابر من قبيلة فهم بن عمرو بن قيس بن غيلان في شرقي الجزيرة»**[65].

«أما أبوه قد مات وثابت صغير، ولم ترد عنه أخبار مشهورة»[66]

«وبعد وفاة أبيه جابر، تزوجت أمه من الشاعر أبو كبير الهذلي، فكره تأبط شرا وحاول أن يقتله، فاخفق وخافه»[67]

- **سبب تلقيه بـ "تأبط شرا":**

«إن سبب لقب تأبط شرا أن أمه عيرته بأن أخوته كل يأتيها بشيء إلا هو، فصاد أفاعي كثيرة، وأتى بهن في جراب متأبطا به، فألقاه بين يديها، فوثبت وخرجت فقال لها نساء الحي: ماذا أتاك به ثابت، فقالت: أتاني بأفاع في جراب، فسألتها كيف حملها؟ قالت تأبطها. قلن لقد تأبط شرا.

وقيل ولعله أصح الأقوال: أن أمه سئلت عنه كان قد وضع تحت إبطه سكينا أو سيفا أو جعبة سهام، فقالت تأبط شرا»[68]

---

[64] الأصبهاني: الأغاني، ج 21، ص 145.

[65] بلاشير: تاريخ الأدب العربي، (تق: إبراهيم الكيلاني)، ط 2، دار الفكر، دمشق، 1984، ص 316.

[66] تأبط شرا: الديوان، ص 5، 6.

[67] غازي طليمان: الشعر الجاهلي، ط 1، مكتبة الإيمان، دمشق، (د. ت)، ص 590.

[68] غازي طليمان وعرفان الأشقر: الأدب الجاهلي قضاياه، أغراضه، أعلامه، فنونه، ط1، دار الإرشاد، سوريا، (د. ت) ص 484.

- **أدبه:**

«لتأبط شرا شعر مبثوث في كتب الأدب وأكثره في شرح حالة ووصف غاراته وتصوير حياته المتشردة، وهو في شعره رجل الانفرادية الحازمة، والشخصية القوية كما هو رجل الكرم والجو الذي يؤثر أضيافه على نفسه والحياة عنده هزؤا بالحياة وتعلق بها هي كرامة تحفظ ومال يبذل، وحرية تقدس، ويد تبسط، وانطلاق من غير انكفاء، في جو من الاطمئنان والحذر واللاوعي الحازم.

- **ميزة أدبه:**

خشونة في المعاني والمباني، وتصوير حسي صادق، ونفس مكسوة بألفاظ وألفاظ تتراءئ فيها العادات والنفسيات، وسذاجة فطرية حلوة، وجو صحراوي يضطرب فيه حيوان الصحراء ونباتها، وغيثها وبرقها، وتصطحب فيه الشراسة والدقة، وتدفق طبيعي على غير نظام إلا نظام الطبيعة الفطرية، وأوزان مستقيمة، وقوافٍ شديدة تتصاعد من خلالها موسيقى الصحـراء، ذلك هو أدب تأبـط شـرًا، وهو يروق ويخاطب النفس من حيث يتلصص بالمادة، هو أدب اعترافي قصصي ملحمي، هو أدب النفس والقلب»[69].

[69] حنا الفاخوري: الجامع في تاريخ الأدب العربي، ص 181.

جـ. شعراء آخرون:

- **عروة بن الورد:**

«تاريخه غامض المعالم وهو ابن زيد عمرو ينتمي نسبه إلى عبس بن بغبض، وهو يعد من الصعاليك المقدمين الأجواد وكان يلقب عروة الصعاليك لجمعهم أياهم وقيامه بأمرهم إذا أخفقوا في غرواتهم توفي نحو 596 م»[70].

- **السليك بن السلكة التميمي:**

«هو السليك بن عمير بن يشرين بن سنان بن عمير الحارث بن عمرو الحارث، بن عمرو بن كعب بن سعد بن زيد بن مناة بن تميم، لذلك ينسبونه فيقولون السعدي التميمي أحد العدائيين الصعاليك الذين لا يلحقون، ولا تعلقوا بهم الخيل ومنهم الشنفرى وتأبط شرا وعمرو بن براق كان أسود اللون أو قريبا من السواد لان أمه سوداء، كانت العرب تدعوه سليك المقاني، حيث كان أعلمهم بمسالك الصحراء ودروبها أي أنه أدل الناس بمعالم الأرض»[71].

- **جحدر بن ضبيقة بن قيس نحو 115 ق هـ – نحو 510 م:**

جحدر بن ضيحة بن قيس البكري الواكلي، أبو مكنف، اسمه ربيعة، وهو فارس بكر في الجاهلية، ومن الذين أبلوا في حرب البسوس ضد تقلب، لقب جحدراً لقصره.

- **حاجز بن عوف الأزدي:**

«هو حاجز بن عوف بن الحارث بن الأخثم بن عبد الله بن مالك بن سلامان بن الأزد»[72].

هؤلاء أبرز شعراء الصعاليك الذين كانوا بارزين بإضافة إلى الأعلم الهذلي، وصخر الغي وعبد يقوث الحارثي وعمر بن عجلان وابن الحدادية ومفزع الليل.

---

[70] حنا الفاخوري: الجامع في تاريخ الأدب العربي، ص 173.

[71] عزيرة قوال بابتي: معجم الشعراء الجاهلين، ط1، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، 1998، ص 172.

[72] حسن جعفر نور الدين: موسوعة الشعراء الصعاليك، ج2، رشاد برس للطباعة والنشر، بيروت، 2008 ص 51، 52.

الفصـــل الثاني:

قراءة في حواريـة الحيـاة والمـــوت في شعر الشنفـرى وتأبـــط شـــرًا

الفصــل الثاني: قراءة في حوارية الحياة والموت في شعر الشنفرى وتأبط شرًا

أولا: مظاهـر الحيــاة عند الشنفرى وتأبط شرًا

ثانيا: مظاهر المـوت عند الشنفرى وتأبط شرًا

تعتبر البيئة الصحراوية المهد الذي نشأ فيه الشاعر الصعلوكي وترعرع، لذلك شعره شديدة الصلة بها، وانعكاس لمظاهرها، فحاكى الصحراء في حرِّها، وبردها، وأمطارها ووصف جبالها ونباتها، وقد اتسمت هذه البيئة الصحراوية بالقساوة والجفاف، وتذبذب الأمطار، هذه العوامل أجبرت الشاعر على عدم الاستقرار والترحال، فوصف في شعر رحلة البحث عن منابع المياه طلبًا لاستمرار الحياة، وكان في صراع دائم مع البيئة، فتارة يكون في مواجهة الظروف الطبيعية، وتارة ضحية لحروب وغارات فرضت عليه، أو ضحية وحش شاركه الصحراء.

وقد انعكس هذا الصراع عند الشنفرى وتأبط شرًا في شعرهما لذا كان صورة واضحة المعالم لهذه البيئة، فالشعر مرآة عاكسة للبيئة القاسية والظروف القاهرة التي كان يعيشها الشاعر الصعلوكي إذ عبر عن عواطفه وأشجانه، كما حاول من خلاله أن يتجاوز مأساة الواقع، وأزمة المصير والنهاية الحتمية التي أرقت تفكيره وأتعست حياته فكانت قصائده صورة الصراع ضد الفناء من اجل البقاء.

ويعد معجم الشنفرى وتأبط شرًا من بين المعاجم التي نقلت لنا هذا الصراع، عبرا عن جدلية الحياة والموت من خلال قصائدهما وهذا نسعى للكشف عنه من خلال هذه الدراسة.

أولا: مظاهر الحياة عند الشنفرى وتأبط شرًا:

يعد الشنفرى وتأبط شرًا من أشهر شعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، حيث عاشا حياة التشر هائمين في الفيافي بحثا عن رغد الحياة والاستقرار والرخاء والغنى، مستخدمين شتى أنواع الصعلكة رافعين بذلك حياة الذل والمهانة والعبودية، ومن مضاهر الحياة عندهما ما تبرزه العناصر التالية:

1.المرأة:

احتلت المرأة في العصر الجاهلي مكانة رفيعة سياسيا واجتماعيا واقتصاديا، مكانة يمكن استيضاحها بجلاء من خلال النظر في شعر العرب الذي هو مرآة حياتهم ولسان حالهم، ولا يوجد أصدق من دليلًا.

فالمرأة لعبت دورًا لم يكن خفيا في الجاهلية، حيث سادت وشرفت، وعلت منزلتها ومكانتها فأعترف لها الرجل بالفضل والمنزلة الكريمة السامية، بل تودد أحيانًا لينال رضاها ويستميل قلبها، ومن أجلها يحارب ويستبسل في حربه ولها يتوجه بكريم الصفات وعظيم الفعال عند الشاعر الصعلوكي، واحتلت مكانة مرموقة في قلبه فتغزل بها ووصف طيفيها عند حضوره في الليل، وشدة تعلقه لمحبوبته التي شغلت القلب والعقل، وأسهرت العيون.

يقول تأبط شرًا في قصيدة طويلة:

يَا عِيدُ مَا لَكَ مِنْ شَوْقٍ وَإِيرَاقِ وَمَرِّ طَيْفٍ عَلَى الأَهْوَالِ طَرَّاقِ
يسري على الأينِ والحيَّات مُحتفيا نفسي فداؤكَ من سارٍ على ساقِ
إِنِّي إِذَا خُلَّةٌ ضَنَّتْ بِنَائِلِهَا وَأَمْسَكَتْ بِضَعِيفِ الْوَصْلِ أَحْذَاقِ
نَجَوْتُ مِنْهَا نَجَائِي مِنْ بَجِيلَةَ إِذْ أَلْقَيْتُ لَيْلَةَ خَبْتِ الرَّهْطِ أَرْوَاقِي
تالله آمَنُ كُلَّ أُنثَى بعدما حلفت أسماءُ بالله مِنْ عَهْدٍ وَمِيثَاقِ (73)

يقصد الشاعر في هذه الأبيات بالعيد الوقت الذي يعود فيه إلى التذكر والوجع والشوق واستخدم لفظة العيد ليدل على تكرار ومعاودة الشوق الذي من شدته جافى النوم عينيه، وهو

(73) تأبط شرًا: الديوان، ص 40 – 43.

ما عبر عنه بالإيراق وهذا على شدة الشوق بالرغم من أنه مجرد طيف، إن خيال حبيبته يزوره في الليل فيمنعه من النوم ويجعله يكابد البعد والمخافة والمشقة.

وكلمة إيراق ناسبة كلمة فراق حيث أن النوم يجافي العين في وقت الليل والطروق يعني الزيارة في الليل، ويواصل وصفه لطيف محبوبته بقوله "يسري على الأين والحيَّات محتفيا" بمعنى أن طيف محبوبته تسير حافية القدمين ماشيا غير راكب، ولكن الخيال لا يمشي على ساق ولكنه كما قال (يسري) وقال (محتفيا) فوصفه بما يوصف به ذو الساق ويجوز أن يكون الشاعر قصد صاحب الخيال، وقوله (من سار على ساق) إشارة إلى تجشم قطع المسافات والأهوال من غير قافلة أو دليل أو راحة وهذا جدير أن يكون في موضع من يفدي بالنفس.

ثم ذكر القدمين الحافيتين، والساق في الطيف لهو إلباس جو الأنوثة على هذه المعشوقة التي جاء طيفها يخفف من عناء السفر، ثم إن ذكر الساق الواحدة دون الساقين لهو ذكاء خارق بإبداء محاسن المحبوبة.

عبر تأبط شرا في هذه الأبيات عن شدة الشوق والإيراق الذي يعانيه بسبب فراقها وقد ألمّ في هذه الأبيات بها متحدثا عن هجرها له بعد الوصال، ومبينا عدم صدقها في مواعيدها وهذا دليل على أن المرأة المحبوبة هي بمثابة الحياة له، فهو رغم فقدانها ومغادرتها لهذه الحياة إلا أنه يتذكر طيفها ويتحدث عن شدة شوقه لها والمرأة بالنسبة لتأبط شرًا رمز للحياة وفي اتصالها واستمرارها ولقائها معنى الإقبال على الحياة.

كما يتحدث الشنفرة في قصيدة يرسم بدقة ملامح أنموذج مثالي هو الأنموذج الأنثوي فالمرأة في شعره لها علاقة قيمية تكاملية مع الرجل، وقد أبدع الشنفرى في وصف محبوبته والتنديد بمحاسنها وأخلاقها يقول:

فيَا جـــارَتِي وأَنتِ غيــرُ مُلِيمَـــة إِذَا ذُكِـــــرَتُ ولاَ بِـذَاتِ تَقَلَّـــتِ
لقد أَعْجَبَتْنِـــي لا سَقُوطاً قِناعُهـا إِذا ما مَشَـــتْ ولا بِذَات تَلَفُّـــتِ
تَبِيتُ بُعيدَ النَّـــوْمِ تُهْـدِي غَبُوقَها لِجـــارَتِهـــا إِذَا الـهَدِيّـــةُ قَلَّـــتِ
تَحُلُّ بِمِنْجَـــاةٍ مِن اللَّـ ـوْمِ بَيْتَهـــا إِذا مـــا بُيُـ ـوتٌ بالمَذَمَّـــةِ حُلَّتِ
كأَنَّ لهَا فـــي الأَرضِ نِسْياً تَقُصُّهُ على أَمِّهـــا وإِنْ تُكَلِّمْـــكَ تَبْلَتِ
أُميْمـــةُ لا يُخْـــزِي نَثَاهَـــا حَلِيلَها إِذا ذُكِـــرَ النِّسْ وَانُ عَفَّتْ وجَلَّتِ

إذا هُـــ وَ أَمْسَـى آبَ قُـرَّةَ عَيْنِـــهِ مآبَ السَّعيدِ لم يَسَلْ أَيْنَ ظَلَّتِ[74]

يظهر في هذه الأبيات صورة متكاملة الأبعاد للأنموذج الأنثوي ضمن أبعاد ثلاثة: البعد النفسي والبعد الجسمي والبعد الاجتماعي فقد نبضت في الأبيات الصفات المعنوية والنفسية فزوجته الوقور والجذب خجول شديدة الحياء عفيفة سمحة لا تتناولها الألسن ولا يسقط قناعها أثناء مشيها ولا تكثر من التلفت حتى لا تحوم حولها الشبهات، وإنما تسير في طريقها غاضة بصرها كأن لها في الأرض شيئا تبحث فيه، ولشدة حيائها الكلام يموت على شفتيها، وهي حريصة على سمعتها وعلى سمعة بيتها، وتتخذ من ضميرها رقيبا يحاسبها ويجنبها الخطأ واللوم والانحراف. هذا من جهة البعد النفسي أما من جهة البعد الاجتماعي الذي ركز عليه الشاعر في رسم صورة زوجته فقد اشتمل على السلوك المعرفي في قيمتي الوفاء والكرم، فالوفاء ذات أهمية كبيرة بالنسبة للصعلوك، إنه دائما يبحث عن الوفاء الذي يوفر له الراحة النفسية والطمأنينة والاستقرار، ومن هنا ركز الشاعر على وفاء أميمة وحبها له في غيبته وحضوره.

فهو شديد الاعتزاز بها، لأنها تراعي عهده وتصون كرامته وعرضه، وإذا آب إليها بعد رحلة أو غارة وقعت عيناه على ما يسعده ويسره، وهي أيضا كريمة مع جاراتها فهي من خلال وصفه حسنة المعشر والمعاملة تؤثرهن على نفسها ولو كان بها خصطة، وفي أوقات الشدة والجذب والقحط تهدي لهن ما تحتفظ به في بيتها من زاد ولبن.

والشنفرى لا يهتم بالجانب الحسي بقدر ما يهتم بالجمال المعنوي ولعل ذلك يعود إلى عدم الثباة والاستقرار الذين يميزان حياة الصعلوك إضافة إلى كثرة مغامراتهم التي تستدعي المكوث الطويل خارج بيوتهم وترمز هذه بالنسبة للشنفرة إلى ارتياحه وبالتالي يكون مطمئنا.

إذن فالمرأة لها مكانة عظيمة في نفس الشاعر الصعلوكي إذ تعتبر هي الحياة نفسها وبفضها يحقق الآمال التي يسعى إليها وهي تعطيه القوة والشجاعة لمواجهة الصعاب.

ويتحدث تأبط شرًا عن طيف "سعاد" الذي ألم به فأرقه وأذهب نومه ويصفها وصفا حيا جميلًا يقول:

---

(74) الشنفرى: الديوان، ص 32، 33.

لقدْ قــالَ الخلـ يٌ وقالَ حُلسًــا بِظَـهْرِ اللَّيْلِ شُدَّ بِهِ الْعَكُــومُ

لَطِيْفٍ مِنْ سُعَادَ عَنَاكَ مِنْهَــا مُراعَاةُ النُّجُومُ وَمَنْ يَهِيــمُ

وَتِلْك لَئِــ نْ عُنِيتَ بِهَـا رَدَاحٌ مِنَ النسِّوَانِ مَنْطِقُهَا رَخِيــمُ

نَيَافُ الْقُــرْطِ غَرَّاءُ الثَّنَايَــا وريداءُ الشَّبابِ ونِعمُ خيــمُ [75]

من خلال هذه الأبيات نلاحظ أن تأبط شرًا يبيت ساهرًا يراقب النجوم، بعد أن أذهب خيال سعاد نومه، وأقض مضجعه، وكيف لا يسهر هؤلاء الذي يؤرقهم طيف الأحبة، يمر بخاطر أحدهم مرور الصبا في ساعات المساء، فيلامس قلوبا صادقة مخلصة، أحبته حبا فطريا خالصا ولم تنعم بهذا الوصل في هذه الحياة، إن الحياة تصبح في نظر تأبط شرًا غير ذات قيمة بدونها، وهي لا تحلوا ولا تطيب إلا بقرب الحبيبة إذا كان البنيحح والفراق فهنا يصبح الموت خيارًا مفضلًاوهذا يبين مدى تعلق الشاعر بمحبوبته وإخلاصه في حبها لأنها بمثابة الحياة له فلا يستطيع أن يعيش بدونها فإما العيش معها وإما الموت على ذلك.

كما اهتم بعض الشعراء الصعاليك بالجانب المعنوي هناك من اهتم بالجانب الحسي وجسم المرأة، ووصفوها وصفا دقيقا، وصوروا مواطن الجمال فيه، كل حسب ذوقه، وبيئته وطبيعة حياته.

وهنا يشير تأبط شرًا إلى طول عنق صاحبته بقوله:

نَيَافُ الْقُرْطِ غَرَّاءُ الثَّنَايَا وريداءُ الشَّبابِ ونِعمُ خيمُ [76]

يقصد تأبط شرًا بـ"نياف القرط" كناية عن طول رقبة صاحبته، و"غراء الثنايا" يقصد به بريق وبياض ونصاعة أسنان محبوبته.

و من الأشياء المؤثرة عند النساء، رخامة الصوت ولين الحديث، وهذا أمر محبب عند الرجال، يؤثر فيهم تأثير السحر يقول تأبط شرًا:

وَتِلْك لَئِنْ عُنِيتَ بِهَا رَدَاحٌ مِنَ النسِّوَانِ مَنْطِقُهَا رَخِيمُ [77]

---

[75] تأبط شرًا: الديوان، ص 68، 69.

[76] نفسه، ص 69.

[77] تأبط شرًا: الديوان ، ص 69.

الشاعر هنا يمتدح محبوبته برخامة صوتها.

كما حظيت الزوجة في الشعر الجاهلي بمكانة بارزة ربما تلي مكانة المرأة المحبوبة، حيث نجد أن الشاعر الجاهلي رسم لها صورة واضحة متكاملة، أظهر فيها بجلاء صورة المرأة العربية (الزوجة) بوصفها شريكا أساسيا للرجل في الحياة، تشاركه همومه وأحزانه كما تشاركه أفراحه، وتقف بجانبه في العسر واليسر، يحبس إليها فيفضفض لها بما يختلج في صدره، وما يشغل باله، ويعكر صفو حياته، فيجد قلبا حانيا وأذنا واعية يقول فتصغي له، ويأمر فيطاع، ويطلب فيلبى طلبه بنفس راضية مطمئنة.

ومن هذا يقول الشنفرى:

لَقَدْ أَعْجَبَتْنِي لا سَقُوطاً قِنَاعُهـا إذا مَشَتْ ولا بِـذَاتِ تَلَفُّـتِ
تَحُلُّ، بِمَنْجاةٍ مِنَ اللَّـوْمِ، بَيْتَهـا إذا ما بُيُوتٌ بالمَذَمَّـةِ حُلَّتِ
كأنّ لها في الأرْضِ نِسْيا تَقُصُّهُ على أمُهِّا وإنْ تُكَلِّمْـكَ تَبْلَتِ (78)

في هذه الأبيات يصف الشنفرى زوجته وصفا معنويا بديعيا ويصور فيها حياءها وعفتها وكرامتها وحسن علاقتها.

أما تأبط شرًا فمازال منشغلا في مغامراته العاطفية وها هو يتغزل بامرأة سباها من بني بجيلة، وراح يتغنى في مفاتنها دونما وازع من حياء، أو خشية من بشر، يقول:

بحليلةِ البجليّ بتْ من ليلهـا بينَ الإزارِ وكشحِها ثمّ ألصَـقِ
بِأَنِيسَةٍ طُوِيَتْ علـى مَطْوِيِّهـا طَيُّ الحَمَالَةِ أو كَطَيّ المِنْطَـقِ
فإذا تقومُ فصعدةٌ فـي رملـة لبدتْ بريِّـقِ ديمـةٍ لم تغدقِ
وإذا تجيءُ تجيءُ شحبٌ خلفهـا كالأثيمِ أُصعدَ في كثيبٍ يرتقـي (79)

ونظرا لما وجده الشاعر الصعلوك في تلك المرأة، أخذ يمعن في وصف محاسن جسمها بعد أن قضى تلك الليلة ملتصقا بها، فأذهله القوام الجميل والنحيل منها، فهي مثل القناة المستقيمة حينما تقوم، ومثل الحية التي ترتقي في كثيب الرمل حينما تقبل عليه، لما تتسم به من الخفة، وجميل المنظر والجسد.

---

(78) الشنفرى: الديوان، ص 32.

(79) تأبط شرًا: الديوان، ص 38، 39.

ومن القيم الجمالية الغزلية التي تعرض لها الشعراء الصعاليك واللصوص في وصفهم للمرأة طيب الرائحة، وها هو الشنفرى يصور طيب الرائحة المنبثقة من صاحبته يقول:

فبِتْنا كـــأنَّ البيتَ حُجِّــرَ فوقَنا بِرَيْحَانةٍ رِيحــتْ عِشاءً وطُلَّتِ

بريحانةٍ مِن بَطنِ حَلْيةَ نَوَّرَتْ لها أرَجٌ ما حولَها غيرُ مُسْتِتِ (80)

فرائحة المحبوبة في ذلك المساء كرائحة الريحانة التي نبتت في واد خصب، وقد خرج نورها وانتشر عطرها، فكأن البيت الذي أمسى فيه الشنفرة ورفاقه قد أحيط برائحة عبيرها الجميل، الذي سرى إليه وامتد شذاه في جميع الأرجاء.

وهكذا نلاحظ أن المرأة كانت بمثابة إشارة زمنية تعبر عن زمن السعادة التي كان يجتاح عالم الشنفرى وتأبط شرًا، فهي كانت أنيس وحدتهما، لأن حب المرأة عاطفة إنسانية خالدة بكل ما تحمله من دلالات الحياة، والخصب والبقاء.

(80) الشنفرى: الديوان، ص 34.

2.عالم الصعاليك الليلي:

كانت الطبيعة ومازالت الأم الرؤوم، والملهم الأول للشاعـر الصعلوك، نشـأ فـي ألنافها، وظل به وجوده الموضوعي والمستقل في أشعاره خاصة حينما يلونها بمشاعره وانفعالاته "**فهي حزينة إذا كان حزينا، ومبتهجة إذا كان مبتهجًا، فليس للطبيعة كيان في نفسه إلا بمقدار ما تنعكس على صفحة إحساسه**"[81] أي أن الطبيعة كانت تحس بما يحسه الشاعر وكما تكون حالته النفسية –إما مبتهج أو حزين– تكون مثله، وهذا دليل على شدة الصلة مع الطبيعة فبفضلها قد مارس الصعلوك شتى أنواع السرقة والنهب والقتل وممارسا شتى أنواع مغامراته فهي لا تقيده بالقيود ولا تحد من حريته، واستغل الليل لممارسته أعماله ومغامراته وإغاراته إنها بمثابة الحياة بالنسبة له نظرًا للظروف التي يعيشها من قساوة وصعوبة العيش ويمكن حصر عالم الصعلوك الليلي فيما يلي:

أ. ليل الترقب أو المراقبة:

تحدث الشعراء الصعاليك واللصوص منذ العصر الجاهلي عن سراهم ليلًا وعن مظاهر الطبيعة المختلفة المحيطة بهم، وما يعرض لهم فيها من وحش كاسر وجن وغيلان، وتحدثوا أيضا عن تربصهم بأعدائهم، وترصدهم للفرصة الملائمة لمهاجمة ضحاياهم، فقد كانوا يتمركزون فوق القمم العالية التي يكشفون بها أوسع منطقة ممكنة، ويختبئون فيها بحيث يرون المارين من الناس دون أن يلحظهم أحد، وقد سميت تلك الأماكن المخصصة للتربص بالمراقب يقول يوسف خليف:"**والمرقبة التي يتربص فوقها الشاعر الصعلوك دائما منيعة أبية على سواه، وأكثر ما يتحدثون عن تربصهم فوقهـا والليـل مقبل يفشـي الكون بدياجيه الكثيفة، ليكون أمعن في التخفِّي**"[82].

من خلال هذا يصور لنا الشنفرى صورة لمراقبته العالية التي يعجز الصياد البارع ذي الكلاب المدربة على الصيد من الوصول إليها، أما هو فقادر على بلوغ قمتها بعد أن بدأت الشمس بالغروب، وخيم ظلام الليل الدامس على الأرجاء، وقد ظل فوقها متربصا ومتخفيا طوال ذلك الليل يقول:

وَمَرقَبـــةٍ عَنقَـاءَ يَقصُـرُ دَونَـهَا أَخُو الضِّرْوَةِ الرِجْـلُ الحَفِيُّ المُخَفَّفُ

---

[81] صلاح عبد الصبور: قراءة جديدة لشعرنا القديم، دار النجاح، بيروت، 1983، ص 65.

[82] يوسف خليف: الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، ص 172.

نَعَبتُ إلـى أَدنَـى ذُرَاها وقد دَنا من الليلِ مُلتَـفٌ الحَديقـةِ أَسْـــدَفُ
فَبِتُّ على حَـ دِّ الذِّراعَينِ مُجْنِياً كَمَـا يَتَطَـــوَّى الأَرْقَـــمُ المُتَعَطِّـفُ (83)

لكنه على رغم من علو مكانه، وسواد الليل الشديد من حوله إلا أنه ما يزال متطويا على نفسه طوال الليل كالأفعى، ومن هنا نستشف ذلك القلق المهيمن على قلبه، والصراع الوجدان المسيطر على نفسه في تلك الليلة، فهو دائم الحذر والتربص.

وقال تأبط شرًا مصورا قمة الجبل التي ظل يصعد إليها ليلًا إلى أن دقة نواقيسه آذانه بالرحيل وبدأت الشّمس بالشروق:

وقلَّـــةٍ كسنان الرُّمــح بــارزة ضَحْيَانَةٍ فِي شُهُورِ الصَّيْفِ مِحْرَاقِ
بادرتُ قنَّتها صحبي وما كسِلـوا حَتَّـــى نَمَيْـتُ إِلَيْهَـا بَعْـدَ إِشْـــرَاقِ
لا شيء في ريدها إلاَّ نعَامتُهـا مِنْهَا هَزِيـمٌ وَمِنْهَـا قَائِـمٌ بَـــاقِ (84)

ويبدو أن الطبيعة وقفت إلى جانب الصعاليك، فقد اتخذوا في الكهوف والمنحدرات والمستترات المشرفة على الأودية والطرق، مواضع رصد واختفاء يراقبون المارة، فإذا وجدوهم دخلوا موضعا صعبا يمكن حصرهم به انقضوا عليهم، فأخذوا منهم ما يكون عندهم من متاع هذه الدنيا، ثم هربوا بما غنموا إلى مخابئهم حيث لا يصل إليهم أحد، وقيام الشنفرى وتأبط شرًا بهذه المخاطرة والمغامرات بالنسبة إليهم هو الحياة.

واقتحام جوف الليل للقيام بمهمة المراقبة من مقومات الرجولة عند العرب قديما، وقد سمي صاحب هذه المهمة بـ "الربيئة". وكان من دواعي الفخر والاعتزاز بالنفس، أن يكون الصعلوك منهم ربيئة قومه في غاراتهم، يقول تأبط شرًا ملاحًا ابن عمّ له:

ويجعل عَيْنَيه ربيئة قَلْبِه إِلَى سَلَّةٍ من حَدِّ أَخْلقَ باتِكِ (85)

---

(83) الشنفرى: الديوان، ص 53.

(84) تأبط شرًا: الديوان، ص 42.

(85) نفسه، ص 45.

إنّ التربص في المراقبة أم يحرص عليه كل صعلوك شجاع والشنفرى وتأبط شرًا خير دليل على ذلك، وهي مهمة شاقة لا يقدر عليها إلّا مغامر طموح، قوي القلب، جريء على خوض غمار الليل.

ب.ليل الشجاعة وشدة البأس:

كان الليل مجالا رحبا لإبراز العديد من القيم الخلقية وبعض تلك القيم ارتبطت به وباتت ماثلة في أشعار الصعاليك واللصوص مثل قيمة الشجاعة، وجرأة القلب، وشدة البأس، وقوة الاحتمال، والصبر، وتحدي الصعاب، ومضاء العزيمة، وعلو الهمة "**وهي صورة متكاملة الجوانب، دقيقة الخيوط واضحة الألوان تصلح لكل صعلوك من أولئك الصعاليك الأقوياء الذين روّعوا الجزيرة العربية، وأثاروا في أرجائها الرعب والفزع**"[86].

فبعد أن وجد الصعاليك أنفسهم في وضع مهين في مجتمعهم إما لفقرهم، أو لسواد ألوانهم وعوزهم، وإما لتخلي قبائلهم عنهم، ونبذهم إياهم، ثارة نفوسهم ولم يكن أمامهم لتفادي هذا الوضع إلّا الاعتماد على قواهم الجسدية، وأساليبهم العنيفة، وقد عبر شعرهم عن هذه المعاني تعبيرًا واضحا، ينم عن إحساسهم بالظلم وتأثرهم به، بل واستماتتهم للخروج من نطاق الذل والاضطهاد الذي فرضه المجتمع عليهم.

يقول تأبط شرًا مفتخرًا بشجاعته:

وقالـوا لهـا لاتُنكحيـهِ فإنـهُ لأوَّلِ نَصْـلٍ أَنْ يُـلاَقِيَ مَجْمَعـا
فَلَمْ تَـرَ مِـنْ رَأْيٍ فَتِيلاً وَحَاذَرَتْ تأيُّمهـا مـن لابسِ اللَّيـلِ أروَعـا
قَلِيلُ غِـرَارِ النَّـوْمِ أَكْبَـرُ هَمِّهِ دمُ الثَّـأر أو يَلقـى كميّـاً مسفَّعا
يُمَاصِعُهُ كُـلٌّ يُشَجِّـعُ قَوْمُـهُ وَمَا ضَرْبُهُ هَـام العِـدَا ليُشَجَّعَـا
قليل ادِّخـارِ الـزَّاد إلاَّ تعلَّـة فقد نشزَ الشُّرسوفُ والتصق المِعى [87]

يفتخر تأبط شرًا في هذه الأبيات بشجاعته وقوته أمام المرأة التي خطبها من هذيل، ولكن قام قومها على عدم الارتباط به، فأبت أن تتزوجه ثم يقول واصفا حالة أصحاب المخاض وذكرهم منه:

---

[86] خليف يوسف: الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، ص 35.

[87] تأبط شرًا: الديوان، ص 34.

وَلَكِنَّ أَرْيَابَ الْمَخَاضِ يَشُفُّهُـمْ إِذَا اقْتَفَـرُوهُ وَاحِــداً أَوْ مُشَيَّعَـا [88]

وليس ذلك لشيء إلّالكونهم على يقين بقدرته الخارقة، وشجاعته، وجرأته على اقتحام أغوار الليل الذي قلما ينام فيه، فمازالوا يخشون على إبلهم وممتلكاتهم في حضرته وفي غيابه عنهم.

وها هو الشنفرى يفتخر بذاته لا يمجد إلا نفسه ولا يعظم سوى بطولاته، يقول:

هــم الأهلُ لا مستـودعُ السرِّ ذائعٌ لديهم ، ولا الجاني بما جَرَّ ، يُخْـذَلُ
وكــــلٌّ أبـيٌّ باسلٌ غيـــــر أننـــي إذا عرضــت أولى الطرائدِ أبســـــلُ [89]

يتحدث الشنفرى في هذين البيتين عن شجاعته ويؤكد أنه يأبى الظلم والذل مفتخرا في ذلك بنفسه ويقول في موضع آخر:

إذا الأمعزُ الصَّوَّان لاقى مناسمــي تطـــاير منــه قــادحٌ ومُفَلَّـــــــلُ [90]

جمع هذا البيت الفصاحة والبلاغة معًا، فالشاعر أعطانا معان في قمة الجمال في ألفاظ موجزة فهو حينما يمد وعلى الأرض ذات الحجارة تتطاير الحصى متهشمة من قوة رجله المتين تشبه منسم البعير أي قدمه، ليس هذا فقط بل أنها تصدر شرارة نارية إثر تصادم الحصى ببعضها لبعض ويقول في أبيات أخرى:

وَخَتْ بِهِمْ حَتَّى إِذَا طَالَ وَخْدُهُـمْ وَرَابَ عَلَيْهِمْ مَضْجَعِي وَمَقِيلِـي
مَهَتْ لَهُمْ حَتَّى إِذَا طَالَ رَوْعُهُـمْ إلى المهدِ خاتلتُ الضِّيا بختيـلِ
فلمَّا أحسُّوا النَّومَ جـاؤوا كأنَّهُـمْ سِبَاعٌ أضَافَتْ هَجْمَـةً بِسَلِيـلِ
فقلَّتُ سوَّارَ بن عمـرو بنِ مـالكٍ بِأسْمَرَ جَسْـر القُذَّتَيْنِ طَمِيــلِ
فَخَرَّ كَأَنَّ الْفِيـلَ أَلْقَــى جِرَانَـــهُ عليه بريّـــان القـواءِ أسيــلِ [91]

---

[88] تأبط شرًا: الديوان، ص 35.

[89] الشنفرى: الديوان، ص 59.

[90] نفسه، ص 62.

[91] تأبط شرًا: الديوان، ص 59.

يصف تأبط شرًا في هذه الأبيات كيفية إيقاعه بقوم كانوا يترصــدون لــه من الأزاد ليلًا، فكان هو من أوقع بهم، وقضى على البعض منهم من خلال مكيدة، حاك خيوكها حينما أوهمهم بأنه قد أخذ يتهيأ للنوم ففاجأهم بانقضاضه عليهم.

ولقد ارتبطت حياة الصعلوك الشجاع بالليل ارتبــاط ملازمــة، كملازمــة الثــوب للجسد، والصعلوك حين يصور الارتقاء فهو يصور ارتقاء نفسه على الآخر ويرى تأبط شرًا والشنفرى في المراقبة الطويلة العالية، تعبيرًا عن تساميهما، فهما يعيشان حاضرهما دون راضين قنوعين، غير مبالين بما يخبئه لهما المستقبل، وهما يواجهان الواقع بكل سلبيته ونقائصه بل يواجهان الليل وظلمته رافعين رأسيهما، والواقع أن وصف المرقبة هو تعبير عن واقع الحياة وأن الشاعر الصعلوك لجأ إلى الجبل ليثبت وجوده ويعزز مكانته ويؤكد حريته التي وفرت له الانطلاق.

ج.ليل الكر والفر:

إن الكر والفر، والغارة والهجوم، والسلب والنهب، كلها مصطلحات نظرية ومعتقدات وأفكار وجدت للتطبيق الفعلي على أيدي الصعاليك حيث تبَوؤوها وحققوها علــى أرض الواقع، وتغنوا بها في أشعارهم وعدوها من مفاخر بطولاتهم وعظيم انجازاتهم.

وقد توسع الشعراء الصعاليك واللصوص في حديثهم عن تلك الغارات التي كانوا يقومون بها حتى توشك أن تكون اللون البارز في لوحة حياتهم الشعرية التي يخلوها الليل بظلامه الدامس من كل جانب، ولعل ذلك: "**من الطبيعي – ما دامت حياة صعاليك العرب قد اتخذت شعارها الغزو والإغارة للسلب والنهب – أن يكون أكبر ما يعنى به شعراؤهم أحاديث مغامراتهم، لأن هذه المغامرات هي الحرفة التي قامت عليها حياتهم، والأسلوب الذي انتهجوه فيها لتحقيق غاياتهم**"[92].

وفي لامية العرب غارة ليلية صعلوكية مفجئة شنها الشنفرى يقول واصفا:

[92] يوسف خليف: الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، ص 186.

وليلةِ نَحْسٍ يَصْطَلِي القَوْسَ رَبُّهـا وأَقْطُعَهُ اللاتِـي بهـا يَتَنَبَّـلُ
دَعَسْتُ على غَطْشٍ وبَغْشٍ وصُحْبَتِي سُعارٌ وإرزيـزٌ ووَجْـرٌ وأَفْكَـلُ
فأَيَّمْـتُ نِسوانـاً وأَيْتَمْـتُ إِلـدَةً وعُنْتُ كما أَبْدَأْتُ والليـلُ أَلْيَـلُ
وأَصْبَحَ عَنِّـي بالغُميصـاءِ جالِسـاً فَريقـانِ مَسـؤولٌ وآخَـرُ يَسـأَلُ
فقالـوا لقـد هَـرَّتْ بليـلٍ كلابُنـا فقُلنـا أَنِئْبٌ عَسَّأَمْ عَـسَّ فُرْعُلُ
فلـم تَـكُ إلاَّ نَبـأَةٌ ثـم هَوَّمَـتْ فقُلنا قَطاةٌ رِيعَ أَمْ رِيـعَ أَجْـدَلُ
فـإِنْ يَـكُ مِـن جِـنٍّ لأَبْـرَحُ طارِقًـا وإِنْ يكُ إِنْساً مَاكَهَا الإِنسُ تَفعَـلُ [93]

يصور الشنفرى في هذه الأبيات تلك الغارة التي شنها على حي من أحياء العرب بعد أن وقع بين أمرين أحدهما مر: أحدهما خارجي وهو البرد وشدة الظلام والمطر، والآخر داخلي يتمثل في خوفه، وجوعه، واضطرابه النفسي الذي حول ليله إلى ليل دائم بما أحدثه فيه من قتل وسلب ونهب، وبما أوقعه من تشتت ذهني لأصحاب ذلك الحي الذين أصابهم الذهول، ومستهم الحيرة جراء ما ألمّ بهم ليلا، وأحدث ما أحدثه واختفى في لمح البصر.

فلم يعد أما الشنفرى وقد استحكم طوق الحياة حول عنقه سوى المواجهة والتحدي من أجل البقاء، فجاءت الاستجابة عنيفة وحادة في غارة تلك الليلة المظلمة التي جسدت إحساسه بالاستنفار، وحسم الأمر فعاد سالما، غانما ماديا ومعنويا، أما ماديا فمن خلال ما سلبه، ومعنويا من تساؤل القوم حول ماهيته وإعجابهم به على رغم ما أصابهم بقدرته الخارقة التي أذهلتهم، فغدوا يظنون فيه الظنون.

والصعلوك الجريء المقدام العالم بأمور الليل وخفاياه القاهرة له، هو الذي ينجو من أهوال الليل وأقطاره كما نجا تأبط شرًا من أيدي قوم أغار عليهم ليلا فلحقوه، لكنه استطاع أن يفلت منهم بسب قدرته الجسدية المتمثلة في سرعته الفائقة التي عجزت الخيل أن تجاريه فيها يقول:

إِنِّـي إِذَا خُلَّـةٌ ضَنَّـتْ بِنَائِلِهـا وَأَمْسَكَتْ بِضَعِيفِ الْوَصْلِ أَحْـذَاقِ
نَجَوْتُ مِنْهَا نَجَائِي مِنْ بَجِيلَـةَ إِذْ أَلْقَيْتُ لَيْلَـةَ خَبْـتِ الرَّهْطِ أَرْوَاقِـي
لَيْلَةَ صَاحُوا وَأَغْرَوْا بِي سِرَاعَهُـمُ بِالْعَيْكَتَيْنِ لَـدَى مَعْـدَى ابنِ بَرَّاقِ

[93] الشنفرى: الديوان، ص 69، 70.

كَأَنَّمَـــا حَثْحثُـــوا حُصّـــاً قَوَابِمُـهُ أو أمَّ خشفٍ بذي شثٍّ وطُبَّـــاقِ
لا شـــيءَ أسـ رعُ منِّي ليسَذا عُذَرٍ وذا جنـــاحٍ بجنـ بِالرَّيـدِ خفَّـــاقِ [94]

فتأبط شرًا يصف لنا قدرته الجسدية المتمثلة في سرعته التي عجزت أن تجاريها الخيول ويصف لنا كيف أفلت من أيدي القوم الذي أغار عليهم وها هو كذلك يكاد يقع وصاحبه الذي غزى معه في أي بني بجيلة، بعد أن أغار عليهم ليلًافما كان من تأبط شرًا إلّا أن استحدث خطة نجا من خلالها بنفسه، وأنقذ صاحبه وفرا مارين تحت جنح الظلام،تاركين ما غنما وراء ظهورها فيقول في ذلك:

وبالشَّعبِ إذا سدَّتْ بجيلةُ فجَّـــهُ وَمِنْ خَلْفِهِ هُضْبٌ صِغَارٌ وَجَامِـــلُ
شددتُ لنفسِ المرءِ مرّةَ حزمـــهُ وَقَدْ نُصِبَتْ دُونَ النَّجَـــاءِ الْحَبَائِلُ
وقلتُ لهُ كن خلفَ ظهري فإننـــي سَأفْرِيكَ وانْظُرْ بَعْدُ مَـا أَنْتَ فَاعِـلُ
فَعَاذَ بِحَدِّ السَّيْفِ صَاحِبُ أَمْرِهِـمْ وَخَلَّوا عَنِ الشَّيْءِ الَّذِي لَمْ يُحَاوِلُوا
وَأَخْطَأَهُمْ قَتْلِي وَرَفَّعْـ تُ صَاحِبِـي على اللَّيلِ لم تُؤخذْ علىَّ المخاتـلُ
وَأَخْطَأَ غُنْمَ الْحَيِّ مُرَّةُ بَعْـــدَ مَـا حَوَتْـهُ إِلَيْـهِ كَفُّـهُ وَالأَنَـــامِـــــلُ
يَعَضُّ عَلَى أَطْرَافِـ ـهِ كَيْفَ زَوْلَـــهُ وَدُونَ المَلاَ سَهْلٌ مِنْ الأَرْضِ مَاثِلُ
فَقُلْتُ لَهُ هَـ ذِي بِتِلْكَ وَقَـــدْ يَـرَى لهـــا ثمنـاً منْ نفسـهِ ما يُـــزاولُ [95]

وعلى الرغم من الحيل والمكائد التي نصبتها لها بن بجيلة لم يقع وصاحبه فريسة سهلة في شباكهم، بل لاذوا بحمى الليل الذي منحهم الأمان حينما استتروا بظلامه وتسربلوا بسرعة عدوهم، تلك السمة التي امتازوا بها على غيرهم من الصعاليك في عصر بني أمية، «**قد كانت شائعة في صعاليك الجاهلية دون الإسلام سرعة العدو وإن كانت مرتبطة أيضا بملازمتهم للصحراء، إلّا أنها أنتجت في شعرهم موضوعات خاصة بالإضافة إلى مساهمتها في الموضوعات التي أثمرتها ملازمة الصحراء، ومن الموضوعات الخاصة التي أنتجتها**

(94) تأبط شرًا: الديوان، ص 40، 41.
(95) نفسه، ص 50، 51.

سرعة العدو "شِعْرُ العدو" نفسه في تصويره للعداء ولطريقة عدوه، والمواقف التي يتعرض لها، وكذلك شعر الحيلة، حيث نجد ما ورد في شعرهم من الحيل وصورها وأحدثها مرتبطا بالعدو»[96].

ويعود الشنفرى «**ليصور لنا من جديد أحداث غزوة غزاها في ثنايا الليل مع مجموعة من رفاقه الصعاليك، وكان من بينهم تأبط شرًا، وعمرو بن براقة، فلما غزو وغنموا آبوا عائدين، فاعترضت لهم جماعة من جثعم، ودارت بينهم معركة انتهت بانتصار الصعاليك**»[97] وانطلاقهم بغنيمتهم وانهزام خثعم وتفرقها.

يقول الشنفرى وقد أعلم زوجته بحتمية خروجه غير مبال بحياته ولا بالأخطار والأهوال التي ستواجهه ومن معه:

دَعيني وَقولي بَعدُ ما شِئتِ إِنَّني ... سَيُغدَى بِنَعشي مَرَّةً فَأُغَيَّبُ
خَرَجنا فَلَم نَعهد وَقَلَّت وَصاتُنا ... ثَمانِيَةٌ ما بَعدها مُتَعَتَّبُ
سَراحينُ فِتيانٍ كَأَنَّ وُجوهَهُم ... مَصابيحُ أَو لَونٌ مِنَ الماءِ مُذهَبُ
نَمُرُّ بِرَهوِ الماءِ صَفحاً وَقَد طَوَت ... ثَمائِلُنا وَالزادُ ظَنٌّ مُغَيَّبُ
ثَلاثاً عَلى الأَقدامِ حَتّى سَما بِنا ... عَلى العَوصِ شَعشاعٍ مِنَ القَومِ مِحرَبُ
فَثاروا إِلَينا في السَوادِ فَهَجهَجوا ... وَصَوَّتَ فينا بِالصَباحِ المُثَوَّبُ
فَشَنَّ عَلَيهِم هَزَّةَ السَيفِ ثابِتٌ ... وَصَمَّمَ فيهِم بِالحُسامِ المُسَيَّبُ
وَظِلتُ بِفِتيانٍ مَعي أَتَّقيهُمُ ... بِهِنَّ قَليلاً ساعَةً ثُمَّ خُيَّبوا
وَقَد خَرَّ مِنهُم راجِلانِ وَفارِسٌ ... كَمِيٌّ صَرَعناهُ وَخَومٌ مُسَلَّبُ
يَشُنُّ إِلَيهِ كُلُّ ريعٍ وَقَلعَةٍ ... ثَمانِيَةً وَالقَومُ رِجلٌ وَمِقنَبُ
فَلَمّا رَآنا قَومُنا قيلَ أَفلِحوا ... فَقُلنا اِسأَلوا عَن قائِلٍ لا يُكَذَّبُ [98]

---

[96] عبد الحليم حفني: شعر الصعاليك منهجه وخصائصه، ص 458.

[97] يوسف خليف: الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، ص 187.

[98] الشنفرى: الديوان، ص 26 – 29.

يتحدث الشنفرى عن هذه الإغارة حديث المفتخر، المعتد بقيمتها وبمقدرته على النجاة ومن معه من الأخطار التي أحدقت بهم فيها، حتى ذاقت في وجههم سبل النجاة، فما إن أعلم زوجته بمضيه حتى أسرع بادراك رفاقه الذين لم يعهدوا إلى أحد بتأدية شؤونهم والتزاماتهم نحو أهليهم، فقد أزمعوا أمرهم وانطلقوا كأنهم الذئاب لكن بوجوه منيرة في دجى الظلام وكأنها مصابيح، لا بل أشد إضاءة وجمالا، فهي كلون الماء الصافي الذي تنعكس عليه أشعة الشمس الذهبية، فيغدوا على تلك الهيئة البراقة الفائقة الجمال، وهي إلى جانب ذلك لا يعلوها خوف ولا جزع مما قد يحمله لهم ذلك الليل البهيم من أخطار وأهوال، فقد مضوا مسرعين إلى غايتهم لا يعرجون على نبع المـــاء، ولا يذوقون الــزاد الــذي – على قلتهم – ظل معيبا عنهم، وبعد ثلاث ليال واصلوا خلالها المشي على الأقدام تم المراد، حيث أصابوا هدفهم فهاجموا الحي المبتغى في الهزيع الأخير من تلك الليلة وتعالت صيحاتهم واختلطت بصيحات الصعاليك الذين أعادوا تنظيم خططهم الحربية في لمح البصر بعد أن كشف أمرهم فها هو الشنفرى وبعض الصعاليك يستبسلون في الدفاع على الباقين، بينما أعمل تأبط شرًا والمسيب سيفهما في الأعداء فقضوا على عدد منهم، مما أدى إلى تفرق جمعتهم وذهاب ريحهم تحت جناح الظلام الخاصة بعد أن خيل لهم بأن كل حبل من الجبال المحيطة بهم ينسال منها جمع غفير من الصعاليك، الذي ثبتوا وقاتلوا بشجاعة منقطعة النظير، فعادوا إلى قومهم وجماعتهم وأخذوا يتغنون بما أصابوا من بطولات وبما أحرزوه من مغنم.

وها هو تأبط شرًا يقول مرة أخرى:

يحُبُ ثلاثاً بين يومٍ وليلةٍ وآبَ مُرِيحاً وَهْوَ أَشْوَشُ أَرْوَعُ [99]

فمن خلال هذا البيت يؤكد تأبط شرً أن من الأشياء المحببة إلى نفسه أن يشن ثلاث غارات بين ليلة وضحاها، لكنه يعود بعدها ومنظره الخارجي يبدوا مريعا فشعره أشوش لأنه لا يهتم لأمره لكثرة اشتغاله بالغزو والهجوم، وكأنه قد أوكل لليل مهمة ستره، وحجب منظره عن الأعين.

[99] تأبط شرًا: الديوان، ص 36.

فها هو الشنفرى يتوعد بن سلامان، ويهددهم بالغزو وهو وإن كف فترة من الزمن على الإغارة عليهم، فليس في هذا دليل عن انقطاعه عنهم بل انه يمهلهم إلى حين بأخذهم فيه على غرة، فهم على يقين بقدراته الحربية حتى ولو لم يمسي في ديارهم التي كانت سببا في إذلاله وإهانته، لذا نجده يقول متوعدًا:

كَأنْ قَدْ فَلا يَغْرُرْكِ مِنِّـــي تَمَكُّثِـــي سَلَكْـــتُ طَرِيقـــا بَيْنَ يَرْبَـغَ فالسَّـــرْدِ

ولِّي زَعِيمٌ أنْ أُلُفَّ عَجَاجَتِي عَلَـى ذِي كِسَاءٍ ، مِنْ سَلاَمَانَ ، أوْ بُـــرْدِ

هُمُ عَرَفُونِـــي نَاشِئـا ذَا مَخيلَـــةٍ أُمَشِّي خِلاَلَ الـــدَّارِ كالأسَدِ الـــوَرْدِ

كأنِّي إِذَا لَـمْ أُمْـسِ فِي دَارِ خَالِدٍ بِتَيْمَاءَ لاَ أُهْـــدَى سَبِيـــلاً وَلاَ أَهدِي (100)

فكان من الأشياء المحببة إلى نفسه أن يعتــرض طريــق سيد من ســادة بنــي سلامان، ويسلب ما معه خاصة بعد ما أن صار خبيرا بمسالك الصحراء وقادرا على الاهتداء في مجاهلها حتى في الليالي المظلمة التي يفشى فيها الليل.

ومن خلال ما تقدم نجد بأن الكر والفر والنهب والسلب والمغامرات والإغارات التي كان يقوم بها الشنفرى وتأبط شرًا كانت بمثابة المعيار الحقيقي، والمقياس الرمزي لتبيين معادن الصعاليك، ومصدرًا ثريا لإبراز مقوماتهم الجسدية ومهاراتهم الحربية التي طالما أضفت عليهم أبعاد بطولية تغنوا بها في أشعارهم.

فكانت هذه الإغارات والنهب والسلب بمثابة الحياة لديهم، فهم يقومون بها وهم في سعادة بالنظر إلى ردة فعل الأشخاص الذين يسرقونهم مفتخرين بذلك بشجاعتهم.

(100) الشنفرى، الديوان، ص 42.

3.السلاح:

من الطبيعي أن يتحدث الشعراء الصعاليك عن أسلحتهم فهي القوة الثالثة التي يعتمدون عليها في مغامراتهم إلى جانب قوة قلوبهم وقوة أرجلهم، «**والأسلحة التي يصفها الشعراء الصعاليك هي تلك التي كان يعرفها العرب في العصر الجاهلي، سواء منها أسلحة الهجوم: السيف والرمح والقوس والسهام، وأسلحة الدفاع: الدرع والترس والمغفر**»[101] ويلح الشعراء الصعاليك على الحديث عن هذه الأسلحة إلحاحًا شديـدًا، وليس في هذا غرابة، إذ أنها تكاد تكون كل ما يملكون في حياتهم الفقيرة، وهي كل ما يحرصون عليه في هذه الحياة المتمردة، ومن هاته الأسلحة التي وصفوها نجد ما يلي:

أ. السيف:

السيف هو السلاح الأول الذي كان يحرص كل عربي على حمله، والأسلحة الأخرى تعتبر إضافة بالنسبة له، أو مدخرة للظروف، حيث أن الأسلحة الأخرى غير السيف كان مجالها القتال، أما السيف فملازم للفرد دائما سواء في الحرب أو السلم وقد تحدث شعر الصعاليك عن السيف وتفنن، «**ولا يكاد شاعر منهم لم يكرر حديثه عن السيف في صور وأسماء وتشبيهات مختلفة**»[102] يتحدث الشنفرى عن السيف يقول:

وأَبْيَضُ مِنْ ماء الحَدِيدِ مُهَنَّدٌ مُجِنٌّ لأَطْرافِ السَّوَاعِدِ مِقْطَفُ [103]

يتحدث الشنفرى في هذا البيت عن السيف ومن خلال حديثه يمكن القول أنه من أكثر الصعاليك اهتمامًا بوصفها فقد كان مفتونًا بها وبارعًا في استخدامها.

أما تأبط شرًا فيعرض سيفه ويقول فيه:

فَطَارَ بِقَحْفِ ابْنَةِ الْجِـنِّ ذُو سَفَاسِقَ قَدْ أَخْلَقَ الْمِحْمـلاَ
إِذَا كَـ لَّ أَمْهَيْتُـهُ بِالصَّفَـــا فَحَدَّ وَلَـــمْ أَرِهِ صَيْقَـــلاَ [104]

---

[101] يوسف خليف: الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، ص 195.

[102] عبد الحليم حفني: شعر الصعاليك منهجه وخصائصه، ص 216.

[103] الشنفرى: الديوان، ص 53.

[104] تأبط شرًا: الديوان، ص 49.

يتحدث تأبط شرًا في هذه الأبيات عن السيف وهو يعرضه، ويقول أنه رغم ثقله فهو لا يفارقه ودائمًا معه.

ب.السهم والقوس:

السهم والقوس من ألزم الأسلحة للصعاليك، «**لأنهم بحكم حياتهم يعتمدون اعتمادًا أساسيًا على أشخاصهم بفردها، وبحكم اعتماد الصعلوك على أسلوب الترصد، والهجوم والدفاع الفردي، يحتاج إلى سلاح بعيد المدى في الإصابة، بحيث لا يضطر إلى الاصطدام المباشر مع أعدائه أو ضحاياه، والسهم خير ما حققه له ذلك، ولذلك نجد شعرهم يتحدث كثيرًا عن السهم ويصور أهميته في حياتهم وتحقيق أغراضهم**»[105].

يتحدث الشنفرى عن أهمية السهام لدى الصعلوك فهي تحفظ له حياته وتدفع عنه الموت يقول:

لَهَا وَفْضَةٌ فيها ثلاثـ ونَ سَيْحَفا إذا انسَتْ أُولَى العَـ ـدِيِّ اقْشَعَـرَّتِ
وَتَأْتِي العَدِيَّ بارِزا نِصْفُ سَاقِها تَجُولُ كَعَيْـ ـرِ العَانَـــةِ المُتَفَلِّـتِ
إذا فَزِعُوا طـ ـارَتْ بأبْيَضَ صَـــارِمٍ وَرَامَتْ بمـــا في جَفْرِهـا ثمَّ سَلَّتِ [106]

يتحدث الشنفرى عن أهمية السهام وأنه يحملها معه دائما، فهي الحاجز بينه وبين أعدائه وبفضلها يستطيع بلوغ عدوه ولو كانت المسافة بعيدة بينهما.

وكذلك يصف قوسه وصفًا يكشف فيه عن صلة وجدانية بينهما ففي هذه الأبيات نحس وكأنه يتغزل بأجزائه ومفاتنه وصفًا دقيقًا يقول:

هَتُوفٌ مِنَ المُلْسِ المُتُـونِ تَزِينُهـا وَصَائِـعُ قد نِيطَتْ إليهـ ا وَمِحْمَـلُ
إذا زَلَّ عنها السَّهْـ ـمُ حَنَّتْ كأنَّهـا مُـرَزَّأَةٌ عَجْلَـــى تُـــرِنُّ وَتُعْـــوِلُ [107]

يصف الشاعر في هذه الأبيات القوس وأن لها صوتًا عند إطلاق السهم، وأنها مساء لا عقد فيها تؤذي اليد، وهي مزينه ببعض ما يحلى.

---

[105] عبد الحليم حفني: شعر الصعاليك منهجه وخصائصه، ص 222.

[106] الشنفرى: الديوان، ص 37.

[107] نفسه، ص 60.

ويصف في موضع آخر لونها وصوتها يقول:

وَحَمْـرَاءُ مِنْ نَبْـعٍ أبـــيٌّ ظهيـــرةٌ تُـرِنُّ كإرنـانِ الشَّجِيِّ وَتَهْتِـفُ
إذا آلَ فيهـا النـزْعُ تَأْبَى بِعَجْسِهـا وَتَرْمِي بذَرْوَيْهَـــا بِهِـنَّ فَتَقْنِفُ
كَأَنَّ حَفِيفَ النَّبْلِ مِنْ فوقِ عَجْسِها عَوَازِبُ نَحل أخطأَ الغـارَ مُطْنِفُ (108)

يذكر أن لونها حمراء من النبع وهو شجر يتخذ منه السهام ويشبه صوتها بالصوت العالي الصارخ ثم يتحول إلى صوت خافت شجي حزين، وشبهها أيض بصوت النحل الذي يخطئ غاره أو خلاياه.

إذا فالنهب والسلب والكر والفر والمغامرات والشجاعة والسلاح أهم العوامل التي تجعل الشاعر الصعلوكي في سعادة وسبب في تسليته وهدفه في هذه الحياة.

(108) الشنفرى: الديوان، ص 54.

ثانيا: مظاهر الموت عند الشنفرى وتأبط شرًا

منذ قديم الزمان والموت ملازم للإنسان في شتى مراحل حياته، فهو لا يترك كبيرًا ولا صغيرًا، فالإنسان ولد لهذه النهاية الحتمية التي تنتظره، ولو حتى مع تقدم السن وحلول الأسقام والضعف ووهن العظم، نجد أن كثيرًا من الناس يغتنمون ويخزنون لهذا الموت الذي مهما فر منه الإنسان فإنه ملاقيه، ومن أهم العوامل التي جعلت الشاعر الصعلوكي يحس بهذا الموت وأنه مهدد له في أي لحظة ما يلي:

1.طبيعة بيئة الصحراء:

تؤثر كل بيئة في أصحابها وتطبع تفكيرهم بطابعها، وتوحي إليهم بكثير من أفكارهم وتصنع إلى حد بعيد مشاعرهم وأحاسيسهم بصيغتها، فبيئة العرب كانت بيئة الصحراء أثرت في سائر نواحي حياتهم المادية والفكرية والعاطفية وفي ذلك العصر لم يكن بوسع الإنسان أن يسيطر على هذه الصحراء فيتجنب الكثير من أخطارها وقد أدى المناخ إلى تنوع التضاريس في شبه الجزيرة العربية بين جبال مرتفعة ووديان منخفضة وسهول إلى اختلاف بين أجزائها، «**فالحرارة ترتفع جدًا في الأجزاء الداخلية في المناطق المنخفضة صيفًا، بينما تكون أقل ارتفاعًا في المناطق الساحلية والمرتفعات، ويغلف المناخ الصحراوي شبه الجزيرة كلها ما عدا الجزء الجنوبي الغربي منها، وترتفع درجة الحرارة صيفًا حتى يبلغ متوسط الحرارة العظمى ستة وأربعين درجةً**»[109]، هذا كان صيفًا أما درجة الحرارة في الشتاء «**فهي تنخفض إلى ما يقارب درجة الصفر، وتزداد الرطوبة النسبية شتاءً في المناطق الساحلية، إذ يصل معدلها 70 في المائة وتقل هذه النسبة في المناطق الداخلية يصل معدلها 50 في المائة وتنخفض هذه النسبة في الصيف فيصل معدلها 50 في المائة وفي الماطق الداخلية 30 في المائة وتهب الرياح والعواصف الرملية، التي كثيرًا ما تضر بالإنسان والحيوان في شبه الجزيرة العربية، وقد يتغير اتجاه الريح من وقت إلى آخر، والعرب تسمي الرياح التي تهب من جهات مختلفة الرياح المتدائبة تشبيهًا لها بالذئب**»[110]، أي صوت الرياح الشديدة تشبه صوت الذئب عند عوائه.

---

[109] حسن أحمد عبد الحميد عبد السلام: الموت في الشعر الجاهلي، ص 14.

[110] نفسه، ص 15.

هذه العوامل في الصحراء التي جعلت شعراء الصعاليك يحسون بالموت إحساسًا قويًا فحياتهم مهددة في ظل هذه البيئة القاسية الصعبة ولذلك نجدهم قد صوروا هذه الصحراء الرهيبة التي يتخيل الموت في كل شبر منها، ووصفوها بما رأوه فيها، وبما تخيلوه منها وعبروا عن إحساسهم بذلك كله، وألمحوا وصرحوا بها في كثير من الأحيان.

إضافة إلى البرد الشديد يقول الشنفرى:

وَلَيْلَــةِ نَحْــسٍ يَصْطَلِــي القَوْسَ رَبُّهـا وَأَقْطُعَــهُ اللاّتي بـها يَتَنَبَّــلُ
دَعَسْتُ على غَطْشٍ وَبَغْشٍ وَصُحْبَتـي سُعَارٌ وإِرْزِيزٌ وَوَجْــرٌ وَأَفْكَــلُ (111)

فالشنفرى في هذه الأبيات يتحدث عن البرد الشديد الذي يحمل معه نذر الحمى ونذر الموت في بعض الأحيان، فمن شدة البرد وصقيعه يجعل صاحب القوس يكسره وهي التي لا غنى عنها كي يتدفأ بها وهذا دلالة على الجو البارد والمتجمد وبما أنه قد فرط بأهم شيء عزيز عليه هذا دلالة على سقيع البرد.

كما يقول الشنفرى في لاميته المشهورة:

وَيَومٍ مِنَ الشِّعْرَى يَذُوبُ لُعَابُـهُ أفاعِيــهِ فـي رَمْضائِـهِ تَتَمَلْمَـلُ
نَصَبْتُ له وَجْهي ولا كِنَّ دُونَـهُ ولا سِتْرَ إلاّ الأَتْحَمِـيُّ المُرَعْبَلُ (112)

يصف الشنفرى شدة الحر لدرجة أنه يرى خيوطا كخيوط العنكبوت من شدة الهاجرة وأن هذا لا تحتمله حتى الأفاعي التي إعتادت العيش في بيئة الصحراء كما أنه من خلال شعر الصعاليك نجد أنهم قد وصفوا الحشرات الضارة بخاصة الحيَّات ويفزعون لرؤيتها فزعًا لا يقل عن فزعهم من السباع الضارية، كما وضعوا القول فنجد تأبط شرًا يقول:

ألا مَن مُبلِــغٌ فِتيــانَ فَهــمٍ بِمــا لاقَيتُ عِنــدَ رَحى بِطـانِ
بِأَنّي قَد لَقيتُ الغـولَ تَهــوي بِسَهبٍ كَالصَحيفَةِ صَحصَحــانِ
فَقُلتُ لَها كِلانــا نِضـوُ أَيـنٍ أَخــو سَفَــرٍ فَخَلّي لي مَكاني
فَشَدَّت شَدَّةً نَحـوي فَأَهــوى لَهــا كَفّــي بِمَصقـولٍ يَمانــي
فَأَضرِبُها بِــلا دَهَشٍ فَخَــرَّت صَــريعـاً لِليَدَيــنِ وَلِلجِــرانِ

(111) الشنفرى: الديوان، ص 69، 70.

(112) نفسه، ص 81.

فَقالَت عُد فَقُلتُ لَهـــا رُوَيــداً مَكـانَكِ إِنَّنـــي ثَبــتُ الجَنـــانِ
فَلَـــم أَنفَــكُّ مُتَّكِـــئً لَدَيهـــا لِأَنظُــرَ مُصبِحـــاً مــاذا أَتانــي
إِذا عَينـــانِ فـــي رَأسٍ قَبيـحٍ كَـــرَأسِ الهِـرِّ مَشقـوقِ اللِسـانِ
وَساقا مُخدَجٍ وَشَـــواةُ كَلـــبٍ وَثَــوبٌ مِن عَبـــاءٍ أَو شَنَـــانِ [113]

فتأبط شرًا في هذه الأبيات يؤكد أنه قابل الغول وهو يصفه لنا، وأنه مازال يقاتله ليلةً إلا أن أصبح وهي تطلبه، والغول سبع من سباع الجن، وجعل يراوغها وهي تطلبه وتلتمس غرة منه فلا تقدر عليه إلى أن أصبح يصفها في هذه الأبيات مفتخرًا بأنه قد تفوق عليها وغلبها.

وانتشار أنواع الحيوان المفترس كالأسد والذئاب والضبع وأنواع الحشرات القاتلة كالحيّات والثعابين ثم ما كان يتخيله ساكنوا الصحراء من أشباح وأرواح وجن ومخلوقات لا يرونها، لكنهم كانوا يعتقدون أنها تسرح في الصحراء وتملأ الجو من حولهم رعبًا.

هكذا كانت الصحراء بطبيعتها الرهيبة ومناخها القاسي ووحوشها الضارية وحشراتها الفتاكة، وفقرها المهلك عاملًاقويًا ضاعف إحساس الشاعر الجاهلي أو الصعلوكي بالموت.

(113) تأبط شرًا: الديوان، ص 74، 75.

2.الجوع والحرمان:

الجوع والحرمان من أهم عوامل إحساس الشاعر الصعلوكي بالموت، فالإنسان يعيش في هذه الحياة عن طريق الأكل والشرب فإذا لم يتوفر هذان العاملان الأساسيان لا تكون هناك حياة، والإنسان بذلك معرض للموت والهلاك والوفاة.

يصور لنا الشنفرى جوعه تصويرًا دقيقًا يقول:

وَأَطْوِي على الخَمْصِ الحَوَايا كَمـا انْطَوَتْ خُيُوطَةُ مارِيٍّ تُغَارُ وتُفْتَـلُ

وأغْدُو على القُوتِ الزَّهِيدِ كما غَـدَا أَزَلُّ تَهَـادَاهُ التنَائِـفَ أَطْحَـلُ (114)

والشنفرى في هذه الأبيات صور لنا جوعه تصويرًا جميلًا، فهو عند انطواء أمعائه من الجوع تصبح يابسة ينطوي بعضها على بعض كأنها حبال أتقن فتلها، ويشبه نفسه بذئب نحيل الجسم جائع ينتقل بين الفلوات بحثًا عن الطعام.

ويقول في موضع آخر:

أدَيـمُ مِطَـالَ الجُـوعِ حتّى أُمِيتَهُ وأَضْرِبُ عَنْهُ الذِّكْرَ صَفْحا فأُذْهَـلُ

وَأَسْتَفُّ تُرْبَ الأَرْضِ كَيْلاَ يُرَى لَـهُ عَلَـيَّ مِـنَ الطَّوْلِ امْـرُؤٌ مُتَطَـوِّلُ (115)

إن الشنفرى هنا يتفنن في تصويره فقره بل حرمانه، في أبلغ صور الحرمان وأشدها تأثيرًا في النفس فهو يتحدث عن الجوع مؤكدًا أنه أصبح أليفًا، حتى أنه اهتدى إلى طريقة يعالجه بها وهي تجاهله وعدم المبالاة به وكتب هذه الأبيات يتحدث فيها عن جوعه واحتفاظه بعزته وكرامته رغم الألم.

ويصور لنا تأبط شرًا قلة زاده يقول:

قَليـلِ اِدِّخَـارِ الـزادِ إلّا تَعِلَّـةً وَقَد نَشَزَ الشُرسوفُ وَالتَصَقَ المِعى (116)

يصور تأبط شرًا في هذه الأبيات قلة زاده وما ترتب عليه من ضعف جسمه وبروز عظامه والتصاق أمعائه.

يقول الشنفرى في بيت آخر:

---

(114) الشنفرى: الديوان، ص 63.

(115) نفسه، ص 62.

(116) تأبط شرًا: الديوان، ص 34.

وَأَعْـدِلُ مَنْحُوضا كـأنَّ فُصُوصَــهُ كعَــابٌ دَحَاهَــا لاعِــبٌ فَهْــيَ مُثَّــلُ (117)

يصف الشنفرى في هذا البيت نفسه فيسميها بالضعف والهزل، وهو يصور ذراعه قليلة اللحم التي لا يبدوا منها إلا العظام، ويصورها بلعبة من العظام كان يلعبون بها وهي صورة حزينة لرجل ينام متخذا من يده النحيلة وسادة، فالجوع والحرمان يؤدي إلى نحول الجسم وضعفه وهزله، يقول تأبط شرًا:

وَأُخرى أُصادي النَفسَ عَنها وَإِنَّهــا لَخُطَّةُ حَزمٍ إِن فَعَلتُ وَمَصــدَرُ

فَرَشتُ لَها صَدري فَزَلَّ عَنِ الصَفــا بِهِ جُؤجُؤٌ عَبلٌ وَمَتنٌ مُخَصَّــرُ (118)

يصف هنا جسمه النحيل الذي ليس فيه إلّا هيكل من العظام الضخمة في صدره، ولكنه عظم لا يحمل لحمًا لذلك كانت بقية جسمه في نحول وضاله.

ويتحدث في موضوع آخر عن هزل جسمه يقول:

كِــلانا إذا مــا نــالَ شَيْئــاً أفاتَــهُ وَمن يحترِث حَرْثي وَحرْثَك يهزُلِ (119)

يتحدث تأبط شرًا في هذا البيت مع إحدى الذئاب عن هزل جسمه وضعفه وأنه يشبهه في نحول جسمه.

وفي الأخير نستطيع أن نقول بأن الجوع والحرمان كان من أهم العوامل التي أدت إلى إحساس الشاعر الصعلوكي بالموت وجعلته يحس في كل دقيقة وفي كل ثانية أن حياته في خطر وهو بذلك يعيش في صراع دائم مع هذه الحياة.

---

(117) الشنفرى: الديوان، ص 67.

(118) تأبط شرًا: الديوان، ص 31.

(119) نفسه، ص 62.

3.ليل الفقد والمعاناة:

إن مرارة الفقد بالموت تفوق كل أنواع المعاناة، إنها مأساة الإنسان الأبدية، إذ يتجاوز فيها ألم الواقع المحتوم وحدود الألم المرتقب، وصولًا إلى متاهات الاستحالة في الرجوع، ومن هنا كان الموت مفجرًا لآهات الشاعر الصعلوك، ولتلك الزفرات التي كانت تثور في داخله كلما استشعر قرب منيته، أو فجع بنعي أحد أصحابه لما كان يسود بينهم من روح التآلف وعيشة الأخوة، وخوف من فقدان الأهل والأحبة، فكما كانوا يغيرون، ويسلبون، وينهبون معًا، ويحمي بعضهم البعض الآخر، نجدهم كذلك رثوا من مات منهم بوافر المشاعر الحزينة، وجزيل المعاني المتألمة.

وهذا ما انتهجه تأبط شرًا حينما رثى رفيقه الشنفرى بقصيدة يقول فيها:

عَلَى الشَّنْفَرَى سَارِي الْغَمَام فَرَائِحٌ غَزِيرُ الكُلَى أَوْ صَيِّبُ الْمَاءِ بَاكِرُ
عَلَيْكَ جَدَاءٌ مِثْلُ يَوْمِكَ بِالْحَيَا وَقَدْ رَعَفَتْ مِنِّي السُّيُوفُ البَوَاتِرُ
ويومُكَ يومَ العَيكتينِ وعَطفةٌ عَطَفتَ وقد مسَّ القلوبَ الحَنَاجِرُ
تُجيلُ سلاحَ المَوتِ فيهم كأنَّهم لِشَوْكَتِكَ الحُدَّى ضَئِينٌ نَوَافِرُ
لألفيتَني في غارةٍ أُدَّعى لها إلَيْكَ وَلَمَّا رَاجِعاً أَنَا ثَائِرُ (120)

فقد ظل يستمطر على قبره الغمام والرائح والساري ليلًا، علّه بذلك يخفف من عظيم مصابه لفقده وشديد أسفه عليه، إذا لم يكن معه ساعة قتله، «**ومن هنا يظهر أن سواد الليل رمز للعدم وللغياب من جهة، وهو من جهة أخرى ظرف للسارية تسقي القبر، ورمز للديمومة يخلد فيها الذكر الحسن**»(121).

في هذه الأبيات يبكي تأبط شرًا على قبر صديقه الحميم الشنفرى، وهو شديد الأسف عليه وفي قمة الحزن، ذاكرًا شجاعته وبطولته هذا من جهة، ومن جهة أخرى يبدي خوفه من قرب نهايته هو كذلك.

وكما أن تأبط شرًا لم يبخل بدموع حزنه وأساه على الشنفرى نجده كذلك مع باقي أفراد جماعته، فإذا ما سقط أحدهم صريعًا اشتد جزعه عليه، وإذا مصابه فيه لا يعدله

(120) تأبط شرًا: الديوان، ص 27، 28.

(121) الفيضاوي علي: الإحساس بالزمان في الشعر العربي من الأصول حتى نهاية القرن الثاني للهجرة، ج 1، جامعة منوبة، تونس، 2001، ص 242.

مصاب، وفي هذا السياق يقول راثيًا عمرو الذي قضى نحبه إثر غارة شنها معه على حي من بني بجيلة:

أَبَعْدَ قَتِيلِ الْعَوْصِ آسِي عَلَى فَتــى وصاحبِـــهِ أو يأمُـلُ الـزَّادَ طـارقُ

أَأَطْـرِدُ نَهْبَاً آخِـرَ اللَّيْـلِ أَبْتَغِـــي عُلاَلَـــةَ يَـــوْمٍ أَوْ تَعُـوق الْعَوَائِـقُ

لَنِعْــمَ فَتـــــى نِلْتُـــمْ كَـأَنَّ رِدَاءَهُ على سَرحةٍ من سرحِ دومةَ شانـقُ (122)

لقد اشتدت به لوعة الحزن لفقد صاحبه في تلك الليلة، وكرهت نفسه السلب الذي غنمه من تلك القبيلة، والتي كانت روح رفيقه ثمنًا له، ومازال يستسمر مرارة الحسرة لمقتله حتى أنه يرى رداء عمرو معلقا على شجرة طويلة.

كما يفتتح الشنفرى تائيته المشهورة بقوله:

ألا أمُّ عَمْرٍو أجْمَعَـتْ فاسْتَقَـلَّتِ وَمَـــا وَدَّعَتْ جِيــرَانَها إذْ تَــوَلَّتِ

وَقَــدْ سَبَقَتْنَــا أمُّ عَمْـرو بأمْرِهَـا وَكانَتْ بأعْنَــاقِ المَطِـــيِّ أَظَلَّـتِ

فَــوَا كَبِـــدا على أُمَيْمَـةَ بَعْدَمـا طَمِعْتُ، فَهَبْهَا نِعْمَـةَ العَيْشِ زَلَّـتِ (123)

يتحدث الشنفرى عن رحيل زوجته أميمة، ويبين أنها قد عزمت على الفراق والرحيل دون أن تخبر زوجها الذي تحبه وتعشقه ويعشقها، حتى أنها لم تقدر على أن تودع جيرانها الذين ألفتهم وأحبتهم، فانطلقت تاركة وراءها زوجها حزينًا متحسرًا معزيًا نفسه بأن النعم لا تدوم ومصيرها الزوال، وأميمة واحدة من تلك النعم الراحلة.

إن مشهد الوداع وما ينبع منه آلام أحدث شرخًا كبيرًا في كيان الشاعر النفسي دفعه إلى استذكار زوجته الراحلة، وبذلك أسهب الشاعر في وصف المزايا النفسية والمعنوية وهو يرسم لزوجته في المقدمة صورة مثالية يسلط فيها الضوء على صورتها المثالية ويبرزها في أجمل أوضاعها، فهي مثالية مع زوجها ومع نفسها ومع صاحباتها.

إن الشاعر الصعلوكي يحيا حياته مع الأحبة والأهل والأصحاب وإذا فقد أحدًا منهم فلا حياة له بعد ذلك، لأنهم سبب سعادته وسبب عيشه، وفقدان الأصحاب هذا دلالة على الخطر الذي يحدق به وأن نهايته ستكون مثل أصحابه ولهذا نجده يعيش دائما في قلق وجو

(122) تأبط شرًا: الديوان، ص 37.

(123) الشنفرى: الديوان، ص 31، 32.

متوتر لأنه يعرف أنه سيؤول إلى هذه النهاية في يوم ما نتيجة للحياة التي يحياها وهو بالتالي مهدد في أي لحظة بالقتل والوفاة.

يقول تأبط شرًا مؤكدًا هذه الفكرة:

لَعَلِّـي مَيِّـــتٌ كَمَـــداً وَلَمَّـــــا أطالـع أهـــلَ ضيـــمٍ فالكــرابِ [124]

يصف تأبط شرًا في هذا البيت خوفه وحسرته من أن يلقى حتفه قبل أن يحقق ما يرغب به، وهذا دلالة على أن تأبط شرًا يحس في كل ثانية بالموت وأن حياته مهددة.

وفي الأخير نصل إلى أن الشاعر الصعلوكي يعيش حياة مهددة مليئة بالأخطار في كل يوم وهو معرض للموت في أي لحظة نتيجة للحياة التي يحياها والطبيعة التي يعيشوها.

[124] تأبط شرًا: الديوان، ص 18.

خاتمة

خاتمة:

عالج هذا البحث "**جدلية الحياة والموت في شعر الصعاليك الشنفرى وتأبط شرا نموذجا**" وتوصلنا من خلاله إلى جملة من النتائج أبرزها:

- توجد طائفة من الشعراء في العصر الجاهلي عرفت بالصعاليك وهؤلاء كونوا مجتمعا خاصا بهم بعد أن خرجوا عن مجتمعهم، مكونين مجتمعا جديدا نشأ بفعل التحالف وتآلف عدد منهم، محاولة لزيادة قوتهم عن طريق التجمع والتعاون.
- تميز شعر الصعاليك بمجموعة من العوامل أثرت فيه بصفة مباشرة أو بصفة غير مباشرة ومن هذه العوامل:

1. العامل الطبيعي: الذي يتمثل في بيئة الصحراء ومناخها، فقد وصفها الشعراء الصعاليك بأنها مغارة واسعة شاسعة الأرجاء جافة يعلوها الغبار وتتلاشى فيها الأصوات، ولا أثر فيها للماء وفيها أماكن مجهولة موحشة، وحيوانات ضارية تتربص لهم في كل مكان.
2. العامل الاجتماعي: يتمثل في ظاهرة الصعلكة التي تسببت في نفور الشعراء من القبيلة بسبب إصدار الأحكـام على سلوكهم وأعمالهم الإجرامية كالقتل والغزو وسلب الأموال بغير حق، وقد ظهر جليا في أخبارهم ومغامراتهم.

– كان الشنفرى وتأبط شرًا يعيشا حياة اجتماعية يغلب عليها التهديد والوعيد، والسطو على القبائل، وكذلك الغزو والسلب، كما كان شعرهما طافح بمعاني التهديد والمآسي التي مرا بها في بيئتهما الصحراوية الجديدة.

– لقد قام الشنفرى وتأبط شرًا بتصوير معاناة التشرد والنفي، كما كان شعرهما وثيقة تحمل أفكارهما وتروج لها، وهذا ما جعل شعرهما يصور حياتهما، ويعبرا بصدق عن التغير الاجتماعي على عهدهم.

– لقد تحدث الشنفرى عن أدوات القوة، فافتخر بالسلاح وأدوات الغزو، ولم يكن حديثه عنها حديثا عابرا، وإنما كان حديثا يصف مضاءها وقوتها وصلابتها، وهذا الوصف – بطبيعة الحال – يهدف إلى إثارة الرعب في قلوب أعدائه والنيل منهم.

– غلب على شعر الصعاليك موضوع الفخر وقد تضمن موضوع الفخر ثلاث أهداف:

الأول يتمثل في تأكيد ذات الشاعر الصعلوك وقوته وبطولته في غزواته، والثاني مناط بالثأر من أبناء القبيلة والنيل منهم، والثالث موجه ضمنيا إلى الخصم والعدو ليهاب جانبهم ويخاف من سطوهم.

- اعتمد الشنفرى وتأبط شرًا في بناء قصائدهما على البناء البسيط الواقعي الذي يعبر عن واقع الشاعرين الذي يعيشانه يوميا.
- ظاهرة الصعلكة عند الشنفرى وتأبط شرا تكمن في الحرية المطلقة في الحياة بعيدا عن كل القوانين التي تسنها القبيلة.
- أبرز المترادفات الدالة على الموت نجد منية ومنى وشعوب وحَيْن وأم قشعم أم الدّهيم والسّام.
- الجدل حوار قائم بين فردين أو جماعتين مختلفتين حول أمرها.
- مظاهر الحياة عند الشنفرى وتأبط شرا تكمن في المرأة والعالم الصعاليك الليلي والسلاح وأما مظاهر الموت تكمن في طبيعة بيئة الصحراء والجوع والحرمان وليل الفقد والمعاناة.
- وفي رفوف المعرفة نكون قد وصفنا "**جدلية الحياة والموت في شعر الصعاليك الشنفرى وتأبط شرا نموذجا**" ولو بجزء بسيط، وما طرح هذا البحث يبقى قابلا للإثراء والتوسع.

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع :

1. القرآن الكريم: برواية حفص، مطبعة محمد هاشم الكُتُبي، دمشق، 1411م.

(أ)

2. أبو تمام: الديوان، (تق: شاهين عطية)، مكتبة وشركة الكتاب اللبناي بيروت، ط1 1968.

(ب)

3. البخاري: صحيح البخاري، (تق: محمد زهير بن ناصر)، دار طرق النجاة السعودية ط1، 1423هـ.
4. بلاشير: تاريخ الأدب العربي، (تق: إبراهيم الكبلاني)، دار الفكر، دمشق، ط 2 1984
5. بوجمعة بوبعيو، جدلية القيم في الشعر الجاهلي، منشورات اتحاد الكتاب العرب دمشق 2001.

(ت)

6. تأبط شرا: الديوان، دار المعرفة، بيروت، 2003.

(ج)

7. جمال الدين ابن منظور: لسان العرب، (تق: عبد الله العائلي)، دار الجيل، بيروت 1989.
8. جمال الدين ابن منظور: لسان العرب، (تق: خالد رشيق القاضي)، ج2، دار صبح بيروت، ط1، 2006.
9. جميل صليبا: المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والانجليزية، ج1، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط1، (د .ت).
10. الجندي درويش: الرمزية في الأدب العربي، مطبعة النهضة، مصر، (د .ت).
11. الجوهري: الصحاح، (تق: أحمد عبد الغفور عطار)، دار العلم الملايين، بيروت، ط4 1990.

(ح)

12. حاتم الطائي: الديوان، دار صادر، بيروت، 1981.

13.حسن أحمد عبد السلام: الموت في الشعر الجاهلي، مطبعة الحسين الإسلامية، القاهرة 1991.

14.حسن جعفر نور الدين: موسوعة الشعراء الصعاليك، ج2، رشاد برس للطباعة والنشر بيروت، 2008.

15.حسين عبد الجليل يوسف: الإنسان والزمان في الشعر الجاهلي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1988.

16.حنا الفاخوري: الجامع في تاريخ الأدب، دار الجيل، بيروت، ط1، 1987.

(ر)

17.راغب الاصبهاني: المفردات في غريب القرءان، (تق: نزار مصطفى الباز)، ج1 مكتبة نزار مصطفى الباز، بيروت، (د.ت).

(ز)

18.زاهد عوض الألمعي: مناهج الجدل في القرآن الكريم، مطابع الفرزدق التجارية، القاهرة (د . ت).

(س)

19.السليك بن السلكة: الديوان، (تق: طلال حرب)، الدار العالمية، بيروت، 1993.

(ش)

20.الشريف الجرجاني: التعريفات، ج1، دار الكتب العالمية، بيروت، 1983.

21.الشريف الجرجاني: معجم التعريفات، (تق: محمد صديق المنشاوي)، دار الفضيلة القاهرة، (د.ت).

22.الشنفرى: الديوان، (تق: ايميل بديع يعقوب)، دار الكتاب العربي، بيروت، 1996.

23.شوقي ضيف: العصر الجاهلي، دار المعارف، القاهرة، ط1، (د.ت).

(ص)

24.صلاح عبد الصبور: قراءة جديدة لشعرنا القديم، دار النجاح، بيروت، 1983.

(ط)

25.طرفة بن العبد: الديوان، (تق: علي الجندي)، دار الفكر العربي، القاهرة، (د.ت).

(ع)

26.عبد الحليم حفني: شعر الصعاليك منهجه وخصائصه، الهيئة المصرية للكتاب، مصر 1987.

27.عبد الرحمن بن عيسى الهمذاني: الألفاظ الكتابية، (تر: الأب لويس شيخو)، مطبعة الآباء اليوسعين، بيروت، 1885 .

28.عبد الرحمن ابن خلدون: مقدمة ان خلدون، (تق: درويش الجويدي)، شركة أبناء شريف النصاري للطباعة والنشر، بيروت، ط2، 1996.

29.عبد الرحمن ابن خلدون: مقدمة ابن خلدون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط4 (د.ت).

30.عدي بن زيد العابدي: الديوان، (تق: عبد الجبار المعيد)، شركة دار الجمهورية للنشر والطبع، بغداد، 1965.

31.عروة بن الورد: الديوان، (تق: أسماء أبو بكر محمد)، دار الكتب العلمية، بيروت 1992.

32.عزيزة قوال بابتي: معجم الشعراء الجاهلي، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، ط1 1998.

(غ)

33.غازي طليمان: الشعر الجاهلي، مكتبة الإيمان، دمشق، ط1، (د.ت).

34.غازي طليمان وعرفان الأشقر: الأدب الجاهلي قضاياه أعراضه أعلامه فنونه، دار الإرشاد، سوريا، ط1، (د.ت).

(ف)

35.الفيروز بادي: القاموس المحيط، (تق: أنس محمد الشامي وزكريا جابر أحمد)، دار الحديث، القاهرة، 2008.

(م)

36.مجمع اللغة العربية، معجم الوجيز،ج1 ، دار التحرير، مصر، ط1، 1989.

37.محمد أبو زهرة: تاريخ الجدل، دار الفكر العربي، مصر، (د.ت).

38.محمد بن أبي بكر عبد القادر الرازي: مختار الصحاح، مكتبة لبنان، لبنان، 1986.

39.محمد بنو حنبل: مسند الإمام أحمد بنو حنبل، ج5، مؤسسة الرسالة، الأردن، 2001.

40.محمد التومي: الجدل في القران الكريم فعاليته في بناء العقلية الاسلامية، شركة الشهاب، الجزائر، (د.ت).

41.محمد عبد الظاهر خليفة: الحياة البرزخية من الموت إلى البعث، دار الإعتصام، لبنان (د.ت).

(ن)

42.نسيب نمر: تطور الديالكتيك عبر التاريخ و قانونه الأساسي وحدة و نضال المتضادات دار الرائد العربي، بيروت، (د.ت).

فهـــرس المـوضوعـات

فهرس الموضوعات

المحتوى | الصفحة

مقـدمـــــة .....أ- جـ

الفصـل الأول: قراءة في المصطلح

أولا: الجدل 3

1.لغـــــة 3

2.اصطلاحـا 4

3.مصطلح الجدل في بعض المؤلفات والمعاجم الغربيـة 6

4.بيـن الجـدل والحـوار المحاجـة والمنـاظـرة والمكابـرة 8

ثانيا: الحياة والموت 10

1.الحيـــاة 10

أ. لغـــــة 10

ب.اصطلاحـا 10

2.المـــوت 11

أ. لغـــــة 11

ب.اصطلاحـا 12

3.مرادفات الموت 13

4.السمات الموضوعية والسمات الفنية لشعر الموت 14

أ. السمات الموضوعيـة 14

- استعـادة الماضـي 14

- ذكر الأهل والأصحاب والرفاق 14
- الحضور القوي للمـرأة 14
- الحـــديث عـن القبـــر 15

ب. السمـات الفنيـــــة 16

- الوحدة الموضوعيـة 16
- الصدق في العاطفة 16
- وضوح الألفاظ وسهولة الأساليب 17
- واقعيـــة الصـــورة 17

5.تطور مفهوم الحياة والموت من المعني إلى الترميز الشعري 18

ثالثا: الصعلكة 21

1.المفهوم اللغـــــوي 21

2.المفهوم الاصطلاحي 22

3.نشأة الصعلكة وأسبابها 23

أ. عدم وجود الدولة الجامعة 23

ب.ظهور زعامات غير متزنة 24

ج.الفقر 25

د. طبيعـة الحيـاة فـي الجزيـرة العربيـة 26

هـ.التمرد والخروج عن الأعراف السائدة 27

4.أبرز شعراء الصعاليك 29

أ. الشنـفـــــرى 29

ب. تأبـــط شـــرًا 32

ج. شعراء آخرون 34

الفصل الثاني: قراءة في حوارية الحياة والموت في شعر الشنفرى وتأبط شرًا

أولا: مظاهر الحياة عند الشنفرى وتأبط شرًا 38

1.المـــرأة 38

2.عالم الصعاليك الليلي 44

أ. ليـــل التـــرقب أو المراقبـــة 44

ب.ليل الشجاعة وشدة البـأس 46

ج.ليـــل الكـــــر والفـــــر 48

3. الســلاح 54

ثانيا: مظاهـــر المـــوت عنـــد الشنفـرى وتأبط شـرًا 57

1. طبيعة بيئة الصحـراء 57

2. الجـــوع والحـــرمـان 60

3. ليل الفقـد والمعانـــاة 62

خاتمـــــــة 66

قائمة المصادر والمراجع 69

الملخص:

تناولنا في هذه البحث "**جدلية الحياة والموت في شعر الصعاليك الشنفرى وتأبط شرًا نموذجا**" وهو مكون من مقدمة وفصلين وخاتمة.

تطرقنا في الفصل الأول إلى قراءة في المصطلح، تناولنا فيه مفاهيم نظرية حول جدلية الحياة والموت والصعلكة.

ورصدنا في الفصل الثاني مظاهر الحياة عند الشنفرى وتأبط شرًا من خلال العناصر التالية: المرأة وعالم الصعاليك الليلي وتم تقسيمه إلى ثلاث أجزاء ليل الترقب والمراقبة وليل الشجاعة وشدة البأس وليل الكر والفر، أما الجزء الثالث فخصصناه للسلاح وماله من دور في حياة كل من الشنفرى وتأبط شرًا.

كما تعرضنا إلى مظاهر الموت عند الشنفرى وتأبط شرًا وتجلياتها في شعرهما من حيث طبيعة بيئة الصحراء والجوع والحرمان وليل الفقد والمعانة.

أما الخاتمة فتضمنت النتائج التي وصل إليها البحث.

الكلمات المفتاحية: الجدلية – الصعلكة – تأبط شرًا – الشنفرى – الحياة – الموت.

Résumé:

Dans nos recherches, nous avons eu affaire à la dialectique de la vie et la mort dans la poésie du "SAALIK ; CHANFARA et TAABAT-CHARR" qui se compose d'une introduction, deux chapitres et d'une conclusion.

Nous avons discuté dons le premier chapitre d'une lecture du terme, où nous avons pris des concepts théoriques sur la dialectique, la vie, la mort et la SAALAKA.

Dans le deuxième chapitre, nous avons repéré les aspects de la vies chez "CHANFARA et TAABATA-CHARR" à travers les éléments suivants :

La femme et le monde de nuit du "SAALIK", et on a divisé cette parité en trois éléments :

L'observation de nuit, les nuits du courage et la gravité de la misère, les nuits de la marche et la course, après ; on a consacré la 3^{iéme} partie aux armes et leur rôle dans la vie de "CHANFARA et TAABATA-CHARR".

On a exposé aussi les aspects de la mort chez "CHANFARA et TAABATA-CHARR" qui se manifestent dans leur poésie, ce qui concerne la nature du désert, la famine, la dénégation et les nuits misérables.

Enfin, nous sommes arrivés à la conclusion qui comprenait les résultats de la recherche.

Mots-clés : La dialectique – SAALIK – TAABAT CHARR – CHANFARA La vie – La mort.